خضر نبوه

إنسانية الفئران

مجموعة قصص

بيروت ١٩٦٦

الناشر مكتبة دار بيروت

خضر نبوه

إنسانية الفنان

مجموعة قصص

بيروت ١٩٦٦

الطبعة الأولى
١٩٦٦

أيام الجوع الاولى

حرضت نفسي ونجحت . انعكس الحادي على نحو خطير في مقابلة اخوتي لي . وحق بالنسبة لي بقي الحدث وقتاً طويلاً لا افهمه واشعر بالضعف تجاهه . المهم ان الشك انتصر على عاطفتي الدينية واسكتها بكلام لا يقهر : « إلهك ليس معك وإذن فإلهك ليس معك » .

حدث ذلك فى صباح اول يوم جوع ، وايام الجوع الاولى كثيرة ، وكانت تبدأ من صباح الاثنين وتنتهي بمساء السبت ، فابي يقبض اجرته مساء السبت ويدفعها الاحد ، وفى هذا اليوم يأتي لنا بطبخة وعدة ارغفة هي

باعتباره طعاما كافيا لاسبوع وما كان طعام الاسبوع بالواقع لاقل من ثمانية انفس • فكنا لا نأكل من الاسبوع سوى يوم الاثنين • وكان هذا اليوم من اشد الايام قسوة علينا • فهو بداية صحراء كبيرة من الحرمان •

واليكم القصة : كنت واخوتي نقف صفا واحدا افقيا خلف امنا • ولانني اصغرهم كان من اللائق ان اقف في ذيل الصف • والحقيقة اني كنت احب الوقوف هناك فهو يشعرني باني حر واذا ما شعرت بالاختناق انطلقت الى الخارج املاء رئتي بالهواء المنعش او ارمي بنفسي فى بركة الماء •

فى ذلك الصباح انقطعت عن الصلاة • لم يشعر بغيابي أحد • وقفت تائها عمن حولي • ارفع يدي الصغيرتين الى الفضاء واصلي : « ايها الاله العادل ، اجرة ابي لا تكفينا، مثلما لا تكفي غالبية العمال ، فيا صاحب الحجة التي لا تقهر ، نلوذ بك لتقنع اصحاب الاعمال بان يرفقوا بابي وبالعمال •• » •

وكنت تعلمت بروح ذكية من هم العمال ومن هم اصحاب الاعمال • وكانت العلاقات بين هؤلاء واولئك واضحة بعلاقات سلوى وابو محمد • سلوى هي اختي الكبرى وابو محمد هو الحانوتي جارنا • وكانت سلوى تبيع من ابو محمد كل ما تصنعه من الدمى ذات الكشكش المطرز • لم تكن تكف عن الشكوى • فاللعبة التي تكلفها

اسبوعا من العمل ونصف ليرة من القماش يرفض ابو محمد ان يشتريها باكثر من علبة سردين • وكانت علاقات مشابهة بين ابو محمد واخي سليم وان كانت اقل نظافة • كان سليم باصابعه السمراء الطويلة يربح الكلل من اولاد الحي ويبيعها من ابو محمد بقرطاسة بوظة •

وصرت اردد ذلك ودموعي تنهمر وكانت ايام الجوع تقف امامي جدارا ساحقا حتى السماء • ولم انتبه الا مؤخرا الى ان اخوتي سمعوا كل حرف نطقت به • وخجلت من تصرفى انا الذي اكره الخجل • ولم اجد سوى ان افر الى الخارج حتى لا ابكي • ومنذئذ انقطعت عن الصلاة •

واعترف باني تبدلت قليلا بعد انقطاعي عن الصلاة • ولا اريد ان يفهم تبدلي هنا بغير معنى الجرأة • فقد صار لدى الان الجرأة على ان اصغي الى اصوات جوعي : لماذا لا تسرق وتأكل ؟ وهكذا استطعت ان احتفظ بحياتي ثلاث سنوات بقليل من الجوع وكثير من الرعب قبل ان تتزوج شقيقتي من احد الامراء العرب وتنتهي حياة القلق بالنسبة لي ولجميع اخوتي • وبالنسبة لماضي كان الرعب يخف وطأة يوما عن يوم بصدد تلك المرحلة • وفى النهاية اصبحت لصا محترفا • فقد تركت كل الوسائل البدائية كنكش الارض واقتلاع البطاطا من بستان جارنا ابو خالد او كقطف الباذنجان والبندورة فى حمى الظلام من بساتين « السقي » وكسرقة الشموع والزيت وعلب الكبريت

والفرنكات القليلة من « مقام » امام البرج « محمد الرادوف » .

والواقع انني اكون على صواب اذ اؤكد باني لم اتبدل كثيرا . وانا ـ وانا اليوم استاذ الادب فى كبرى الجامعات ـ ما ازال احمل نفسية الطفل البريئة المؤمنة بارادات ما فوق الطبيعة ـ وقد يكون ذلك بسبب انني لم يقبض علي ولا فى مرة واحدة ملتبسا بسرقة . ولكن تصوروا ما كان سيكون مصيري لو قبض علي ذلك النهار المشهور ؟ كان ذلك فى الساعة الثالثة بعد الظهر فى عصر يوم من تموز . وكان الجو حارا حتى كان يخيل الي وكأن اخشاب التابوت الذي الى جانبي ايضا تنز عرقا . كنت داخل « مقام » محمد الرادوف ، ذات القبة العالية والجدران السوداء الراعبة ، وكنت قد جمعت كل ما على « المذبح » من شموع وعلب كبريت وقناني زيت وقرآين ومزهريات وفرنكات تتراوح بين الخمسة والعشرين والخمسين ووضعتها كلها فى كيس « جفصين » . وكنت اهم برفع الغطاء الحريري الاخضر الذي يغطي قبر « الرادوف » الذي يتوسط المقام حين احسست بحركة من الخارج وبخطى تقترب .

لم يكن ثمة مكان اختبيء فيه غير التابوت . فرفعت الغطاء وتمددت فيه ثم وضعت الكيس بين رجلي واغلقت .

ودخل شخصان .

فقال احدهما :

ــ ها هوذا •

وحفق قلبي بشدة اذ خيل الي انهما يقصدانني •

ــ انه عتيق •

ــ اليس من تابوت آخر ؟

ــ لا اظن •

ــ احمل •

وجمدت فى مكاني وقطعت نفسي ثم احسست بالتابوت يتحرك ويرتفع بي •

ــ انه ثقيل • ما رأيك ؟

واعيد التابوت الى الارض وساد صمت مخيف • وتزايدت ضربات قلبي • اخيرا اذا بيد تمتد تحت الغطاء فترفعه قليلا قليلا فاجمد كالحجر واختنق • كانت لحظات من الرعب القاتل • ولكن الغطاء لم يرتفع الا سماكة اليد التي امتدت تحته • عندها شعرت باليد تلامس وجهي ثم ترتفع فتلامس وجهي من جديد وفجأة يتمزق السكون بصرخة مدوية ويصفق الغطاء مطبقا فوق رأسي مرة اخرى •

ورفعت الغطاء • كان الرجلان قد قفزا عبر الباب واختفيا فتركت التابوت والكيس وانطلقت اركض هاربا أنا ايضا •

ترى هل كنت الان استاذ جامعة لو قيض لهذين الرجلين الشجاعة على القبض على ولد صغير وسوقه الى السجن مشهرا به امام رفاقه وسكان بلدته ؟

الحبل

الناس ولدوا فى اسرة من حرير وانا ولدت فى مجرور ماء . الناس ظهورهم رشيقة عضلية تنتصب كالشهب وانا ظهري تقرقش واحدودب . الناس يعيشون مع ناس مثلهم وانا اعيش فى مقبرة تموج بالقذارة والجثث وليس فيها من الاحياء سوى انا والفئران .

واعتزمت ان اخرج الى سطح باريس : يجب ان اعرف ، باي ثمن ، من انا ؟ فان فأرا فلا بقى فى المجارير وان انسانا فلا بقى وسط الناس .

كنت ارتدي ثوب العمل الازرق وجزمة (ما تزال بشكل جزمة) وقبعة زال شكلها ولونها وكنت احتفظ باجرة شهر كامل فى جيبتي الخلفية هي مجموعة من اوراق العشر فرنكات . واذن ، فشكلي كان اكثر من اي وقت يحرضني على ان اعيش فى العالم الانساني وما علي الا ان امارس انسانيتي مثل كل الناس .

فسرت فى الشوارع المزدحمة بالناس فى هوس ولد .

وكنت اذكر نفسي باني انسان بعد كل لحظة حتى لا انسى وانا بالمداس الملتحف بالقذارة والثياب البلدية وسط الاحذية اللامعة والطقوم وسيارات الرينو الملائكية •••

وغرزت فأرة اسنانها بلحم صدري وصرخت : « قبضت عليك ايها المزيف » • وبقدر ما اساءني ان تتخذ الفئران مني عدوا ــ وانا الذي ما عاديت احداً ــ سررت ان تؤكد احساسي بانني لست فأراً ، وقفزت الفأرة من عبي وهي تصوصيء بازدراء عائدة الى المجارير ! لم اهتم • ومع ذلك فقد تملكني الخوف بعد ان اختفت عن عيني • ان لم اكن من البشر فكيف ساقدر على العودة الى عالم الفئران وقد اكتشفوا زيف فئريتي ؟ عدت آتامل فى شكلي فابدد خوفي مؤكدا على اني لن اعود الى عالم الفئران واني انسان مثل كل الناس ومن حقي ان اعيش فى وسطهم • ولكي احسم المشكلة قررت حالا ان امارس على نفسي تجارب انسانية •

قلت لنفسي : سارتاد المسرح الليلة ولا بأس ان امارس التجارب الاخرى فى الايام التالية ــ كان مسرح الاوبرا اقرب المسارح الى النقطة التي وصلت فيها • ولم اكن شاهدت منه طيلة خمسين سنة سوى المجارير • وكان رائعا ان انطلق من بابه الرخامي لازهو بانسانيتي وسط قاعاته ذات المرايا البلورية والتماثيل الفنية وتحت انظار شرفاته المتلئلئة بالحلى والانوار •

قلت لنفسي : « لعله شيء مميز لسكان المجارير العليا

ان اجري معاملات بسيطة قبل الدخول الى المسرح » •وخلعت قبعتي للبوليس وانحنيت شاكرا تنبيهه لي بالحصول على تذكرة • وها انذا في الصف امام شباك التذاكر اسير خلف رجل مسن خطوة فخطوة ازحف ببطء مثله مثلما لو شدت قدمينا الى بعضهما • وها هي البائعة ذات الوجه القرنفلي والرموش الطويلة تقطع التذاكر ، الواحدة اثر الاخرى ، في خفة السحر ، وكل شيء مهيء مرتب في تنظيم رائع • وضحكت في سري من سكان المجارير الذين لا يعرفون نظاما ووضعت ابهامي كما فعل الرجل المسن على الورقة المطبوعة امام البائعة وقلت لها : « هنا ، اريد ان اجلس ايها السيدة المهذبة » • وحدث فجأة شيء لم افهمه • فالصبية ذات الوجه القرنفلي والعينين المضئتين بزرقة السين لم تلبث ان استعادت التذكرة التي اعطتني اياها وابعدت يدي بازدراء !

ـ ماذا حدث ؟

وسمعتها تصرخ ببغض :

ـ ثلاثين فرنكا جديدا ؟

قلت في سري : « ثلاثين فرنكا جديدا لماذا ؟ »

وسألتها :

ـ ربما تعنين ثلاثين فرنكا قديما • بالطبع فهذا هو الصواب ياسيدتي بل هو معقول ايضا بالنسبة لرجل بائس مثلي •

وكأني شتمت عرضها . فهبت بارجلها واذرعها تصرخ :

ــ اي خنزير انت ؟

وبدا كأنها تريد ان تحطم الشباك وتغرز اصابعها الحمراء فى وجهي ، فخفت ودفعت لها كل راتبي عن شهر ايلول وكان بالضبط ثلاثين فرنكا جديدة . دفعت وقلت فى نفسي : « يجب ان ادفع كالاخرين . فهي معاملات ضرورية لا يتم بدونها الحفاظ على النظام الانساني الذي يجب ان اتقيد به لاكون انسانا فعلا » .

رأيت راتبي الذي اشتغلت لتحصيله ثلاثين يوما يطير امام عيني بلحظة واحدة . لا شك ان العالم الانساني غير مادي والا لما ساوى دخولي الى المسرح مثل هذا المبلغ ، ولا بد ان يكون الامر كذلك بالنسبة لي انا ايضا ، وحسبي ان يكون الامر كذلك !

ولكن بالرغم اني اقتطعت تذكرتي ظل الناس ينظرون الي بشزر . وذكرتني نظرتهم بالفأرة التي كانت تختبيء في صدري متجسسة علي . هل هم ايضا اكتشفوا انني انسان مزيف ؟ وللحظة شعرت بما يشعر به الغريق عند آخر رمق : فان كنت فأرا مزيفا وانسانا مزيفا فمن اكون فعلا ؟ وبنوع من الاشراق زايلني الشعور بالاختناق ولمت نفسي على تسرعي فى استنتاج الاسباب والاحكام مؤكدا على ان الامر مجرد سوء تفاهم نشأ عن عدم استبدالي ثياب العمل بثياب

اخرى !!

ورأيت البوليس يقترب مني بعين عطوف • ولكني لم افهم نظرته الملحاحة الي • فترددت بالدخول لعل احدهم يقف الى جانبي ويغير من نظرات الجميع المتشابهة المنصبة علي •

وبادرني البوليس بنبرة زاجرة :

ـ ايها السيد ، الدخول الى المسرح ممنوع بدون كرافة !

ولم افهم •

ـ سيدي ماذا تقول ؟

ـ ايها السيد • الدخول الى المسرح ممنوع بدون كرافة •

ففهمت وقلت مداريا :

ـ بالطبع ، هذا من اجل النظام ايضا ••

وكنت اود ان اعتذر عن خطأي وما كنت لارى ان الامر يحتاج الى اكثر من اعتذار بسيط • ثم ها انذا في افخم مسرح بالعالم •

لكن البوليس قاطعني وهجم يدفعني بقوة من طريق المدخل :

ـ ارجوك ايها السيد • انك تعرقل دخول الاخرين ••

ولم اغضب . فلكي اكون انسانا فعلا علي ولا ريب ان امارس كل تفاصيل الحياة لسكان العالم الانساني . وشكرت البوليس على ملاحظته الثمينة وابتعدت وانا انحني له واكرر الاعتذار .

الى اين ؟ وقبل ان افكر انتبهت الى بطاقة الدخول وقد ابتلت بعرق يدي فجففتها بطرف كمي وخرجت .فيما انا بالخارج لا ادري ما افعل تذكرت انه قد يكون من حقي ان استرجع ثمنها . وقد استخفتني الفكرة فركضت متجاوزا ، من غير قصد طبعا ، الصف المنتظر امام شباك التذاكر . ولكن ما ان اندسست خلف الشباك حتى دفعني الى ورائه الشخص الاول وهذا ما فعله الثاني والثالث حتى وجدت نفسي اخيرا فى ذيل الصف وامامي اكثر من عشرين شخصا . قلت لنفسي ربما انهم اخطأوا فهمي . فأنا اريد ان استرجع ثمن تذكرتي ليس الا ! وركضت من جديد الى الشباك واراد الشخص الاول ان يدفعني الى ورائه لكني اسرعت اعتذر واوضح :

— من فضلك ايها السيد . اريد ان اعيد بطاقتي ليس اكثر !!

لم يدفعني هذه المرة لكنه مكث خلفي يتأوه ويتبادل مع الاخرين الحركات والنظرات المزدرية !

صرخت بي قاطعة التذاكر :

ــ ماذا تريد ؟

ــ لا شيء • اريد ان استرجع ثمن تذكرتي •

ــ لماذا ؟

ــ انت تعلمين كما صرت اعلم بان النظام الانساني يمانع دخول المسرح بدون كرافة •

وضربت طرف القلم وصرخت بصوت اجفلني :

ــ ممنوع ايضا ايها السيد الاحمق رد البطاقات المباعة !!

وفكرت بان جوابها مجرد « فشة خلق » او من باب التخلص من ازعاجي وانها ما تلبث حتى تمد يدها الى الدرج وتعيد الي الثلاثين فرنكا • لكن البائعة ذات الانامل الرقيقة الانيقة راحت تصرخ على نحو متوحش :

ــ يا بوليس ! يا بوليس ! ••

ولم يكن ثمة حاجة لاستدعاء البوليس فصراخها وصل الضفة الشمالية بالضفة الجنوبية • ولما هجم علي البوليس بهراوته الثقيلة ادركت اية اساءة انزلتها بحق النظام الانساني الراقي • وخرجت بدون تردد نادما على تعذيب انسانية الناس ومصمما منذ الان على الا اقوم بتجربة انسانية دون الاستعداد لها •

وقبل ان اخرج خطرت ببالي فكرة • كان من الصعب

ان أتقبل انني سارمي البطاقة فى السين • لم تكن الصعوبة فى انني اشتريتها باجرة عمل كامل بل ، لان بطاقة مثلها ، سواء كانت لي ام لغيري ، لا يجوز ان تذهب سدى • ومرة اخرى وجدت نفسي اندس في الصف الطويل امام شباك التذاكر اسأل الواحد بعد الاخر ان يشتري بطاقتي • لكن الجميع رفضوا شراءها فأعدت المحاولة من جديد ثم استدركت خطأى امام هراوة البوليس فاعتذرت وخرجت •

كنت غاضبا من نفسي الى حد انني كدت ان احقق نيتي فى رمي البطاقة • انا استحق ولا شك نظراتهم المحقرة انا استحق خسارة ثلاثين فرنكا انا استحق وكل شخص مثلي يخالف النظام الانساني الراقي يجب ان يستحق هذا واكثر •

انتهيت الى اخر شارع الاوبرا دون ان اعثر على شخص يشتري مني البطاقة • وكانت اجوبة الجميع جازمة تزيدني شعورا باعتبار النظام الانساني وقدسيته • ولكن الامر كان يبدو لي بسيطا : شخص اشترى بمال حصل عليه بالكد بطاقة لم يستطع استعمالها فهل يجوز ان يرمي بها فى السين ؟• رأيت ان المشكلة تتجاوز خسارة الثلاثين فرنكا الى حرمان انسان ــ والانسان لا بد ان يكون اثمن رأسمال فى النظام الانساني ــ من حضور حفلة الاوبرا • وعدت تحت تأثير هذه الافكار الى عرض البطاقة على مدخل الاوبرا وفى شارع الاوبرا • لكن بدون جدوى • وكان اخر من عرضتها عليه رجلا طويلا انيقا مشدودا كحبل • فرمقني بنظرة حادة وصرخ فى كراهية :

ـ اغرب عن وجهي ايها الصعلوك انتم الغربـاء تشوهون على الدوام وجه مدينتنا الحضارية .

وكنت انتظرت ان يوجه الي كـل ما فى القاموس الحضاري من اهانات الا ان ينعتني بالغريب . فانا ابـن باريس منذ خمسين سنة . وانا اعرف الاساس الـذي تقوم عليه حجرا حجرا : المجارير والمترو والتلفون ومشاكل الحياة وسراديب المقاومة .لم احزن بل سرني ان يكون للناس هذه الغيرة المخلصة الى حد القسوة على النظام الانساني . كان الندم يشلع قلبي . رفضت ان ايأس . اردت اللجـوء مرة اخرى الى بائعة التذاكر . وكنت الان بالرغم من التعب الذي تملكني اشد حذرا من السابق . وقفت ، كما قيـل لي بالضبط ، فى الصف وصرت ازحف خلف رفيقتي المرأة البدينة ببطء وتأن مثلما تعودت السير فى المجارير الواطئة التي تحد الشخص من الكتف الى الكتف . وصلـت اخيرا . ولم يكن قد بقي ورائي احد . اذن فانا اخر واحد . وسررت ان صار للبائعة الوقت لتتفهم مشكلتي وتتجاوب معها .

وقفت فترة دون ان تنتبه الي ، وهنا لاحظت انهـا تطوي اوراقها وتخبئها فى محفظة جلدية .

ـ ايتها السيدة الجميلة !

ولم تنتبه ، فكررت بصوت سكبت فيه كل ما املك منٍ حنانٍ :

ــ ايتها السيدة الجميلة !

وانتبهت الي وقالت فى لامبالاة :

ــ اهذا انت ايضا ؟

ــ ارجوك ايتها السيدة • لم اقدر ان ابيع البطاقة ، البوليس لا يسمح لي بالدخول الى المسرح بدون كرافة • لم اعد اعرف ما افعل •

فصرخت متطورة :

ــ ولا انا ايضا ايها السيد !

ونهضت بحزم وحملت حقيبتها ودخلت ! بقيت فترة اخرى امام الشباك وقد عاودني ذلك الاختناق من جديد « ان لم اكن فأرا ولا انسانا فمن اكون ؟ » ومن جديد عدت اقنع نفسي باني انسان وان الامر ليس سوى مجرد عدم الاستعداد لامتحان السير فى النظام الانساني • وصرت اعدد زيادة فى الاقناع ما اتمتع به من المزايا الانسانية المشتركة : انا عامل مجارير رسمي عند الدولة والفئران لا دولة لهم • أنا ارتدي ثياب الناس والفئران لا ثياب لهم • انا اتكلم بلغة الناس والفئران لا لغة لهم ثم انا احب المسرح والفئران لا مسرح لهم •

وصممت اخيرا ان اتجرأ ، مهما كلف الامر ، واتوسل الى البوليس لكي يدخلني الى المسرح ، حتى ولو فى الظلام! ورأيت البوليس يتمترس على با بالمسرح بخطوات واحدة

منتظمة • لم احمل نحوه سوى الشعور بالشفقة • فلولاه لما كان للنظام الانساني الراقي من وجود • طبعا بدونه رواد المسرح مجرد سكارى ومشردين وعمال بلدية ومتوحشين • واقتربت وكاني اريد ان اعترف له بكل هذا واشكره • لكني لم استطع ان انطق بكلمة فقد هجم علي وجرني من كتفي واخذ « ينتعني » ويدفشني الى الخارج • ثم عاد الى الداخل واطبق الباب • بقيت لصيقا بالباب • لم اكن اريد ان استعمل البطاقة لنفسي • كنت اريد الان ان احرص على الاتضيع سدى • كنت اريد ان يستفيد منها أي شخص • اريد ان يأخذها اي شخص شرط الا تذهب سدى •

نزلت الدرج وعدت الى الشارع وفى نيتي ان اعطيها مجانا لاي امرأة او شخص يرتدي كرافة •

سألت مرأة عجوز ترتدي معطفا عتيقا :

ـ ايتها السيدة المحترمة • اتحبين ان تذهبي الى الاوبرا •••

ونظرت المرأة الي بازدراء من رأسي الى قدمي وتابعت دون ان تجيب !!

ـ ايتها السيد المحترمة لحظة •

وتوقفت المرأة وقد تبدل وجهها الرخو الهادىء الى وجه عصبي مرتعد فاردفت اقول :

ـ ايتها المرأة المحترمة . ان لدي بطاقة للاوبرا .. وانا لا اريد ثمنها ... ساعطيك اياها بدون ثمن ...

ـ الا تخجل ! الا تخجل ايها الرجل الوقح من مطاردة النساء الشريفات فى الشوارع !!

واسرعت فى اتجاه ما من الشارع وهي تصرخ : ـ يا بوليس ! فهرولت هاربا وبقيت اركض ، دون ان التفت ، حتى مدخل الاوبرا . وهناك وقفت متأملا ، ينفجر قلبي بالشعور بالحمق . فلم اكن فكرت ان منح بطاقة لشخص فى قاموس النظام الانساني هذه المعاني السيئة التي لمحتها فى عيني المرأة . فلا شك انها تصورتني رجلا داعرا او لصا او قاتلا او مجنونا !! ولما بحثت الأمر مع نفسي وجدت له مبرراته حقا فى النظام الانساني . ولم احقد على المرأة بل شكرتها على تنبيهها لي من الاساءة الى شعور نساء او رجال شرفاء يفكرون تفكيرها !

وكان باب الاوبرا قد فتح الان ولم يكن بالمدخل احد غير البوليس . كانت الحفلة قد بدأت . فالسكون عميق عميق . وعند هذا الحد لم استطع ان امتلك نفسي . يجب ان يدخل بالبطاقة شخص ما . يجب الا تضيع البطاقة سدى !! ان وقتا ثمينا يضيع سدى يمكن ان يستفيد منه أي واحد من الناس !!

وفجأة فكرت بالبوليس نفسه . ركضت ، ركضت

اليه كالمجنون ، فحرام ان تضيع بطاقة ثمنها ثلاثين فرنكا جديدا .

وقد ذعر البوليس من عودتي وجمد في مكانه مصعوقا .

قلت وانا اربت على كتفه كما اربت على تمثال ، انا على يقين بانه لن يتحرك ليلقي باسناني خارج فمي !

ـ ايها السيد المحترم . لقد وجدتها !

أكل البوليس شفتيه وكأنه لا يفهم .

فاردفت :

ـ لقد وجدتها ، فسوف امنح البطاقة لك مجانا ، واذا لم تمانع حللت مكانك حارسا للمدخل !!

وكان البوليس يتأملني بدقة . كانت عيناه الضيقتان الغارقتان في جبهته تشتعلان بقلق اسود لم يلبث ان التهب :

ـ ايها السيد . انت مريض . انت مريض جدا !!

قلت مداريا :

ـ ايها السيد لنتكلم ببساطة : انت اولى من غيرك بالافادة من هذه البطاقة التي ان لم يستعملها احد الان ذهبت سدى انت الحارس . انت الذي تحرس النظام

الانساني • من اجل الا اتصور ان ذرة من اتعابنا الانسانية قد ضاعت سدى !!

وبقي البوليس جامدا • يصغي الي بنفس ذلك القلق • فاردفت مسرورا لانه لم يرفع يده الي حتى اللحظة :

ــ ارجوك ايها السيد ان تفهمني قليلا • هل تدري ما معنى اهمال ثلاثين فرنكا جديدا من اتعابنا الانسانية ؟ حسنا لا تفكر • ساوضح ذلك بنفسي • هذا يعني اننا نلحـــق اهانة بالجهد الانساني هذا يعني اننا نحط من قيمة الانسان من قيمتي انا وانت وكل اخواننا البشر • وانت ايهــــا السيد المحترم الذي خلقت لتحرس النظام الا ترى ايضا بان ذلك مساس بالنظام الذي وجد ليحرس الانسان ؟

صرخ بي البوليس وهو لا ينفك جامدا فى مكانه :

ــ اخرج ايها المجنون ••• اخرج قبل ان احطم الهراوة على رأسك •••

ــ مهلا ••• ايها السيد المحترم •• ، هناك سوء تفاهم•• انت حارس للنظام الانســـاني وانا ايضا اريد ان أحـــرس هذا النظام •••

ورحت ، مغتنما فرصة جموده ، اقنعه بانني لست ضد النظام حتى اطرد من المسرح • بل انا هنا لكي اطبق النظام الذي يميزنا عـــن فئران المجارير السفلـــى ••• واريـــد

احتراما للانسان الا تضيع بطاقة الدخول •• واحتراما له لحراسته الانسانية ان امنحها له مجاناً...

وما كدت أصل الى هذا الحد حتى انفجر بصرخة هزت جدران الاوبرا :

ـ أخرج !

وهجم علي يجذبني من كتفي « ينتعني » ويدفشني بيديه ورجليه •

وفى غمرة « تدكربي » الى الخارج اسقطت البطاقة ، ولكنه لم يمهلني لابحث عنها بل صار يدفعني بيديه ورجليه كفأر كبير مجنون • ولحسن حظي اني خرجت قبل ان يحطم رأسي بالهرواة ، وفهمت الان اكثر انني ارتكبب افظع جريمة بحق الانسانية بعدم ارتدائي كرافة • وبعد ان كانت الكرافة بنظري حبلا يشد به الناس رقابهم بلا معنى • صارت تشعرني بالرهبة وبدأت اكتشف ان ذلك الحبل رمز النظام الانساني السائد على السطوح • وانتابني الذهول واليأس من الاكتشاف فتأكدت كاليقين باني لست الا فئرا ولا مكان لي على السطوح فنزلت بدرج اول مجرور فى طريقي ورحت اخبط فى المستنقعات القذرة عائدا الى القاع مسرورا باني لم اتورط فى الاساءة الى الانسانية الراقية اكثر مما تورطت •

المحروقون

كان به شوق مفترس ليشد بقبضته على يد كـــل انسان • ليعانق هذه الوجوه الملاءى بالمجهول ، هذه العيون الساحرة ، هذه النبرات الغريبة وهذه الحركة الالـكترونية الدائبة بين رعشة العين ورأس الاصابع • كانوا ، عنده ، كل بدوره ، ممثلين مبدعين • وكان يحبهم ويحب جمـــال الـكذب فى ادوارهم والحرية فى خرافاتهم ، وكان يحبهـــم ليزداد معرفة بهم ولـكي يتواضع اكثر •••

ومشـكلته فى وجهه او بالاحرى فى عينيه • لم تـكن نار البنزين قد تركت شيئا فى الوجه ، فقد مسحت منه الانف

والعينين والحواجب وطرف الاذنين على نحو بدا الرأس مسطحا وكأنه بتر بضربة قاضية • فكان يشفق على نفسه وعلى الناس وعلى وجهه • وكانت شفقته عليهم اكثر ربما لانه الوحيد الذي نجا من بين عشرين شخصا بعد اصابة سيارته فى فلسطين • كانت فكرة بان من الممكن ان يكون واحدا من ركابه الذين قتلهم الاسرائيليون تجعل كأن روحه افتداء لروح كل منهم • وكانت هذه الفكرة كثيرا ما تحمله على البكاء وتجعل اكثر امانيه ان يموت من اجل الناس • كانت كثيرا ما تصور له ، مرة اخرى ، انه يسمع استغاثة امرأة وطفل داخل سيارته فيرتمي فى النار محطما الزجاج ليأخذ بين ذراعيه المرأة وطفلتها مطفئا النار بعينيه وزنديه •

لم يكن يطمح الى المال لكي يعمل انما الى ان يبقى مع الناس وكان دافعه يتطور يوما عن يوم حتى صار يتنقل بين الاعمال الاكثر تعذيبا • اشتغل كناسا جنائنيا عتالا • صار يتعمد الاشغال الاكثر اهانة • ثم انكر ان يأخذ مقابل عمله • وصار يدور فى الشوارع والمقاهي ينظف الجدران وواجهات السيارات • وبلغ به الامر ان صار يلثم التراب الذي يسير عليه الناس ، ينحني ويقبل ايديهم يغسل اقدامهم يسير خلفهم ، يبحث عن سكان المخيمات والجوعى والمتشردين يعطيهم ما يريدون ويلعق قيء المرضى منهم •

وهكذا لم تمضي عدة سنوات حتى افلس فآلف فريقا من الفقراء اتفق معهم على ان يشحذ على وجهه المشوه

لحسابهم • ولم يأكل الا ما تبقى من طعامهم وبالاجمال لم يعد يأكل شيئا ثم استولى عليه شعور باللامبالاة تجاه نفسه فاصابه المرض وانزوى حتى لا يزعج احدا في طريق جانبيه بثوب ممزق وابريق ماء تاركا نفسه يموت •

وذات يوم مرت به طفلة شقراء خضراء العينين كتلك التي احترقت في سيارته وكانت ذاهبة لشراء زيت • كانت ناحلة شاحبة كالمريضة فما ان رأته حتى انفجرت بصرخة ورمت بالزجاجة وهربت • ولم تكن الحادثة الاولى الا انها لسبب ما جعلت من ادوار يهب من سكرة الموت ليقف على قدمين قويتين ويبتعد راحلا عن المكان • الى اين اذهب ؟ ولم يجد ادوار جوابا فاني ذهب يلاحقه وجهه البشع الذي يملاء القلوب بالرعب • ثم ها هو قد مرض ولم يبق بامكانه ان ينحني لينظف الشوارع او ليقوم باقل عمل يفيد الناس •

ويبكي ادوار في صمت • لا يعرف انه يبكي الا حين يفكر بالانتحار ويتذكر انه وعد نفسه بان يموت من اجل الاخرين • ويملاءه الوعد بالحماس والجرأة على الحياة • فينتفض ويمضي يركض • اذا كان يجب ان يجن كان عليه ان يجن من قبل • لكنه ليس جنونا • الامر انه وجد حلا فأحد زملائه القدامى بالسواقة ويدعى نمروش باع ما يملك من سيارات واشترى سينما ميامي • وكان يعرض عليه مرة بعد أخرى بأن يعمل لديه في السينما .

وكانت الرياح تهب في الشارع العريض كثيفة زرقاء

وكانت تدفعه بكل أطرافها الى مدخل السينما وكأنها تشجعه ، تصرخ فى أعماقه ، دار السينما هو المكان الوحيد حيث تبقى فيه مع الناس • وكان يردد مجيبا « الناس الذين أحبهم ، أحس بنفسي وسطهم آتنفس معهم يخفق قلبي معهم أرقب المشاهد نفسها آعلق على الملاحظات نفسها اضحك اصفر اجن دون ان ازعج احدا منهم » •

ووصل وسلمه نمروش العمل على الفور • دخل الصالة . كان الظلام كثيفاً . وكان الفيلم قد بدأ . فجلس في كرسي امامية حوله مئات الرئات تتنفس همساً وتنهيداً • ها هو مرة اخرى يعود الى وسط الناس الذين يحبهم •

لم يكن عمله أكثر من البقاء فى السينما وتنظيف الصالة بعد كل عرض • ومن غير وعي صار يجلس كل يوم فى الكرسي نفسها وأمام الشاشة نفسها وفى الظلمة نفسها ووسط الاشخاص وتعليقاتهم نفسها •

وما أقل ما بدل وضع جلسته نفسها الرجلان ممدتان والذراعان على الكرسي والرأس نائم وبعد اسبوع يأتي فيلم آخر هو الفيلم نفسه • وكأن الامر فوق ارادته صار الردد تعليقات الرواد « دعاية من اجل الحرب من اجل يعم سام» ويضحك مع آخر رجل في القاعة ويقف ويصرخ معلقا على الاخبار « جونسون حزين من أجل كلبه ولكنه غير حزين على كلابه فى الفيتنام » وكان سعيدا بتلك

التعليقات حتى انه كان يود لو تستمر حتـى نهاية الفيلم . كانت بالنسبة اليه أحلى من الفيلم الذي يعيد نفسه كـل عرض كل يوم يحشو دعاياته كما يحشو« فريحه » سندويش الفلافل . ومشى الحال . فليس لديه مكان آخر غيـر السينما يرى فيه الناس ويجلس معهم . وكان يحس بأن سعادته تزداد فى هذا الاتجاه فهو يكره ان يزعج منظـره صديقا او قريبا وحتى نمروش الذي يتحاشى لقياه يـوم القبض . كان الظلام التربة الطيبة التي تجمعه بالناس الذين يحبهم وكان عدد الرواد يزداد يخصبون التربة ويملاءونهـا بالورد . والواقع انه كان يعيش مع نقاوة الصالة اكثـر مما يعيش مع الشاشة . وكانت الشاشة بالنسبة اليه مملة مزيفة تبلبل بامتزاجها نقاوة الصالة وحقيقتها . وفى المـدة الاخيرة صار من الصعب أن يميز بين الصالة والشاشة . ولـكنه ظل ، بذاكرة قوية ، تشحذها تعليقات الرواد يميـز بينهما . فهذه من معدن وتلك من معدن . وتزايدت دعايات الافلام التي تعرض متنوعة مثل تشعبات الكذبة . وكـان ادوار يسعد بأن يعلق عليها فلا يترك دعايـة الا ويصرخ ، ببعض اللباقة ، دعاية لا تصدقوا . الخلاصة انه وجد بهـذه التعليقات وسيلة جديدة يخدم بها الناس . وبـكلمة كـان سعيدا الى حد بشع . ولم تكن دعايات الافلام لتؤثر على سعادته . بل وكأن تلك الدعايات التي يفندها بصيحة من هنا وضحكة من هناك تسليه وتسلى الرواد .

وسوء التفاهم الذي نشأ مؤخرا ان بدأ فى تعليقاتـه يخطيء تارة ويصيب طورا وانتهى الامر الى ان صار الرواد

أنفسهم ينزعجون من تعليقاته . وهمس نمروش بأذنه ان يسكت وأزعجه أن يصبح سخيفا وأعرض فعلا عن الكلام. واكتشف أخيرا بأن الصمت هو خير رد على تلك الافلام المختلفة ضد حريات الناس وسلامتهم . وبالفعل كان يعتاد على الصمت . ومن هذه الوجهة كان يعيد سعادته السابقة .

ولكن صمته طال . ثم لم يعد يشعر بضرورة النظر الى الشاشة . وقد يئس أيضا من الرواد الذين يحضرون تلك الافلام ويئس من العتمة المخملية التي تجمعه بهم كل يوم ، ومع ذلك أبى على نفسه أن ييأس . الشاشة هنالك نفسها . والرواد هناك أنفسهم . وهو هنا ووجهه المحروق نفسه ثم الافلام نفسها والذي يتغير لا بد أن يتغير .

ولكنه عجز أخيرا عن احتمال هذا الابهام . فسوء التفاهم يشتد أكثر فأكثر . ولعله ذلك الذي يرفض أن يتغير . الابطال الذين يقبلون بأن يمثلوا دعايات . الرواد الذين يقبلون بأن يشاهدوا دعايات . والهدوء الذي يسود القاعة الذي يقبل بأن يستمر هدوءا . وهو الذي يقبل بأن يعمل فى سينما للدعاية . كل شيء من حوله يرفض ان يتغير . وبدأ له الان الشاشة وهي ترتفع وكأنها ستظل ترتفع . وكل ذلك بسيط بسيط وخارق للعقل .

الحقيقة التي يرفض ان يصدقها انه لم يعد باستطاعته ان يعبر عن حبه للناس . وكلما ارتفعت الستارة عن فيلم

« ضد الناس » كلما ازداد ايمانه عنادا . فالتمثيل أصبح حقيقة والابطال اصبحوا روادا والقصة اصبحت قصة . انه يعرف هذا كله ، بلا ريب ، ويعرف كل شيء لكنه لا يريد ان يقبل بأي شيء .

أحس بالحقد على الشاشة البيضاء وعلى ابطالها الجبناء وعلى الرواد الاغبياء وعلى الظلمة المخملية التي تجمعه بهم وعلى ذلك الهدوء الذي يستمر هدوءا . ورأى بأن عليه أن يعمل شيئا . عليه أن يبصق هنا وفى كل مكان يرتفع فيه متحف جديد للانسان . وصار عندما تضيء الانوار ولا يبقى من الشاشة سوى صفحتها البيضاء المملة يرى التشابه اكثر تمازجا وينفجر .

وأحس ادوار بأن الشيء الاكثر انسجاما معه ليس الا المقعد المخلوع الذي يجلس عليه كل يوم . انه لا يفتأ « يزيزىء » ويصرخ تحت جسمه . لن يبقى فى هذا المكان الا اذا تحولت الصالة والرواد والظلمة المخملية وكل شيء الى مخلوقات «تزيزيء» وتصرخ وتثور . ولكن هل يزيزىء ويصرخ ويثور من هو غير مخلوع الظهر كالمقعد ؟ من هو غير محروق مثله ؟ ...

انه الخلع . انه الحرق . انه الدم . هو اللذة التي لا يجدها فى غيره . هنا فى الرحاب الحمراء لا يبقى الا الابطال الحقيقيون والقصص الحقيقية والناس الحقيقيون . وفي اللون الاحمر القاني تختفي الشاشة البيضاء الرتيبة المملة

التي تتحرك بلا صراخ ولا ضجيج ولا متفرجين ...

ويغدو الدم وكأنه يملاء عينيه . أو بالاحرى يغدو اللون الوحيد الذي يمكن ان يجمعه بالناس الذين يحبهم .

الدم الذي يغلي ويزبد ويثور يخنق فى طيات أمواجه كل هؤلاء الرواد المملين وهذه الشاشة وكل أفلامها الدعائية .

السر أنه يرفض ان ييأس . ولو اخطأ مرة ويئس فسوف يكهرب الهدوء الذي يرين على الميامي منذ عشر سنوات . وهو يؤجل القرار الحاسم . والصعوبة انه لا يملك ان يرى الدم مرة اخرى بل يتمنى لو يزول الدم الذي تخثر ذات يوم على سيارته من ذهنه ومن كل الاذهان .

وينتبه مرة اخرى الى ان الرواد يصرخون به بأن يسكت !.. « دعاية .. اجل ولكن بدنا تسكر تملك » ويسكر فمه ويغور فى كرسيه يتركها عمدا « تزيزىء » تصرخ وتثور . ثم يعود يصمت ، يصمت لا ليس كمثل ذلك الصمت الرخيص . انه الصمت الاخر الذي يكتشف لاول مرة فى الرواد وكأنه صمت خرير أعماق المحيط .

الشيخ امام المطعم

شارع كليشيه ، المتطاول كأكبر دعاية « للمولن روج » يزدحم بالمارة والمتفرجين والباعة وبنات البغاء اللواتـــي ينتظرن ، من غير بأس ، زبونا وركبهن تصطك من البرد •

على الرصيف يدوي صخب هو مزيج غريب من صخب شتى قوافل الغجر وغير الغجر والباريسيين انفسهم الذين استحالـوا بمجـأة غجـرا ، كل هؤلاء كانـوا قـد صفوا عنابرهم المتنقلة ــ كانت طنابر ــ على هذا الرصيف المشهور وكان من هؤلاء عشرات « المطعمجية » احدهم امرأة تبيـع في دكان كعلبة السردين سنادويش من كل نوع •

ووقفت بالضبط امام بائعة السندويش ...

نسيت أن أقول بأن كل هؤلاء الذين ذكرتهم جاءوا للاحتفال بعيد الميلاد المجيد وهم فى الحقيقة جاءوا للارتزاق والشقـــاء •

وكان المشترون لا يجدون الوقت للوقوف او حتـــى الكلام مع البائعة الغجرية ذات الصدر الضخم • كانـــوا يتكلمون بعيونهم وكانت الغجرية تصنع السندويش للذين يشيرون اليه بعيونهم وكانوا يأكلون السندويش بالكـــاد بعيونهم • وما أسرع ما ترى عشرات الايدي تحمل هـــذه « الملفوفات » العجيبة الطويلة والقصيرة يتصاعد منهـــا البخار الساخن فتزأر بطنك لواحدة منها وكم تزأر فعـــلا

كان على طاولة الغجرية السمراء ، خلف الواجهـــة الزجاجية ، مرتدلا وجانبون وسلامة وباتيه وسوسيس وخبز وحر وغيرها • وكان الشيخ الغريب يقف الى جانبي يشـــد قبعته المزقة تحت ابطه وجسمه الناحل يرتجف تحت معطف من أيام نابليون • وكانت يداه التي امتدت الي ترتجف تبعا لارتجافات الجسم • ولم يكن فى اليد سوى بضع قطع من ذوات الفرنـــك •

ومرت القطع الواحدة أثر الواحدة بين اصابع الشيخ الهزيلة وهو يهمس بصمت مرتبك :

ـــ سيدي اريد أن أشتري سوسية وينقصني خمسين فرنكـــا •

وأنا مثله احسب ما أملك وما يجب ان أشتري • كان أصغر سندويش لا يقل ثمنه عن المائة فرنكا وعددت بدافع غريزي مرة اخرى ما أملك • لم يكن معي اكثر من هـذه المائة فرنك • فاذا دفعت الخمسين التي يطلبها فسيصبح مثلي الان واصبح انا كما كان • الخلاصة اني اذا دفعت الخمسين فرنكا سأبقى جائعا طوال اليوم وسيأكل هو والمهم اني لن آكل •

ورأيت المشترين الذين لا يجدون الوقت للكلام مع البائعة يشترون ويأكلون ويبتعدون ورأيت بعضهم يدفعه باشمئزاز فيما كان البعض الاخر لا يرد ولا يلتفت •

ويئس الشيخ من المارة وعاد يتوسل الي مرة اخرى :

ـ خمسين فرنكا فقط سيدي • انا لم اكل منذ يومين•

وصاح شاب طويل ضخم وهو يرمي بنقوده للبائعة بسرعة لكي لا يسرع الشيخ ويداهم النقود •

ـ الا ترى هذا الملحاح اللص • هيا • قد يسرق نقودنا •

وتوقفت البائعة فجأة عن العمل لتصرخ بالشيخ الذي ينظر الى النقود ويلهث :

ـ اترغب من نفسك الغياب عنا او انك •• يا للخنزير لقد قطع رزقي •

وتراجع الشيخ بقليل من الاكتراث ، ليفسح الطريق لمشتر جديد • كان يبدو وكأنه معتاد على الامر • كأنـــه يعرف ان المرأة التي تصرخ بوجهه فى اهانة ستستقبله بكـل ترحاب بكل ابتسامتها العريضة المتكلفة اذا ما شحذ ما تبقى من ثمن السندويش •

وتقدم شاب ملتح طويل الوجه • لم يكن مستعجلا كالاخرين . وقف خلف الواجهة ودقق بارتباك المتخم في أنواع السندويش المعروضة • وجهه الابيض الشاحب يبدو خلف لحيته كوجه كلب • واقترب منه الشيخ • فلعله لم يعـــد يؤمن منذ مدة ــ بعلم الملامح ــ فهذه تقوم وتتبدل كـل يوم حسب احوال السوق •

وارتجفت يده وتقلصت علـى القطـــع المعدنيـة الصغيـــرة :

ــ ايها السيد ، ينقصني خمسين فرنكا لاشتـــري سندويش سوسيس •

ولم ينتبه اليه الشاب الملتحي اول مرة • كان بغريزته قــد أضاع الصواب أمام السندويش اللذيـــذ المعروض خلف الزجاج •

واضطر الشيخ ان يلامس كتفه بطريقة مهذبة :

ــ ايها السيد !

ــ مـــاذا ؟

ـ لو سمحت بأن تتفضل علي بخمسين فرنكا • فهي تنقصني لأشتري سندويش سوسيس .

وتأمله الشاب الملتحي لحظة دون أن ينطق . وأخيراً خرج من ذهوله بجواب حاسم :

ـ ابتعد ! • ابتعد ايها الرجل !

ولكن الشيخ لم يبتعد •

ـ انا لا أطلب أكثر من خمسين فرنكا •

- وماذا لو أعطيت كلا من فقراء باريس خمسين فرنكاً ؟

ـ سيكون رائعا ايها السيد انما واحد فقط يطلب منك الان ؟

ـ حسنا ! حسنا !

وانفتحت قبضة الشاب الملتحي المنكمشة بقوة لتسقط منها قطعة من ذات السنتم الواحد ثم مضى مسرعا وكأنه يخشى أن يعود الشيخ ويقبض عليه .

وبالفعل جرى الشيخ خلفه • ثمة خطأ ولا شك • وكان مضطرا ان يعدو حتى يلحق بالملتحي ذي الخطى السريعة • ولا ادري لم وجدتني أعدو خلف الاثنين • فقد نسيت بأنني لم آكل منذ يومين . كلا . ليس لأنني كنت انسانيا فأنا أكره الذين يظهرون انسانيتهم ببضع سنتيمات وانما كنت على الارجح فى حالة خاصة او انني اطلت التأمل فى هذا الشيخ دون سواه •

كبرياء الضيعة

كان يومها أول عهدنا بالبوليس . قبل ذلك كان المختـــار يقوم بواجبات القاضي والشرطي ووزير الانباء وسار الحال على ما يرام ، حتى عمرت البلدة وغزاها الاباله والبعلبكون والفلسطينيون والبيارته الذين طفشوا يبحثون عن أماكــن سكناهم بعيدا عن صخب بيروت ومشاكلها • والواقع ان البرج التي كانت لا تحتاج الى أكثر من سيارتين وبوسطة صار يصعب عد السيارات المختلفة التي تعمل على خطها •

وبالطبع استلزم الوضع الجديد المفاجيء تنظيمــــا سريعا للسير • وكانت ساحة عين السكة وهي عين للبلــدة

قديم قد تحولت فى الاشهر الاولى من السنة الى ساحـــة أشد ازدحاما من ساحات بيروت ، وبالرغم من ان فكـــرة تنظيم السير لم تكن مقبولة بعد من الاهالي فان حــوادث الصدم والعرقلة والصخب لم تعتم حتى جعلتها مقبولة وكان الامر الاكثر الحاحا تنظيم السير فى الساحة وجيء بأعضاء البلدية ، وكما يجتمع الكرادلة لانتخاب أبواتهم ، أغلقوا الابواب على أنفسهم وقطعوا كل صلة لهم بالعالم الخارجي.

المسألة ، على صعيد الخبر ، كانت طريفة . فليس ثمة معارض على المرشح . ولكن من يريد ان يحكم بلدة تعودت ان لا تتحكم ابدا ؟

قال رئيس البلدية بكبرياء أهالي البرج :

ـ نريد بوليسا للضيعة حتى لو لم نكن بحاجة اليه .

وكأنه نطق بروح سائر المجتمعين فرفعوا ايديهـــم بحركـــة واحدة .

ولم تكن الموافقة على تعيين بوليس للبلدة من اجـــل استتباب النظام فيها ولا من اجل المساواة مع بلدان العالـــم فالبرجاويون أكثر فطنة من الاكتفاء بهذا .

والواقع أن الجميع وافقوا على تعيين بوليس ليس اكثر من رؤية شيء جديد فى البلدة .

وأي شيء جديد أكثر طرافة عندهم من ان يروا شخصا يرتدي البزة الكاكية والبرنيطة العسكرية والارزة النحاسية والحزام والهراوة لكي يؤدبهم هم الذين لم تستطع كل سلاسلات أجدادهم ان تنزع كفا من وجههم • وكان انتظار انتهاء اجتماع المجلس اكثر اثارة من انتظار عودة فالنتينا تريشكوفا من رحلتها الفضائية فمن هو الرائد الاول لساحة عين السكة التي تتضارب فيها الخيول والعربات وسيارات المرسيدس واحدث سيارات أميركا ؟ كيف سيكون شكله وصفيره وحركاته وسط ساحة عين السكة العاريه ؟

كان شعور المجتمعين فى دار البلدية نفس شعور الذين ينتظرونهم في الخارج حاداً مثل أي انسان ينتظر ولادة نجم •

من أية عائلة من عائلات البرج سيكون هذا النجم ؟ أترضى عائلة « السبع » بأن يكون من عائلة « حركة » ؟ أيرضى أبو بديع بأن يختار بوليساً من غير عائلته ؟ وهكذا بدأ الجميع يستعدون للمعجزة . وكانت صورة ابو بديع وهو يهرول الى الساحة يهدد ويرعد ضاغطا بقوة على رجله العرجاء متهما الروس والاميركان بالتدخل فى تعيين البوليس تملاء حيز وجودهم •

وبالرغم من خطورة التعيين كان لذيذا كامتحان صعب لتلميذ مجتهد • ولم يكن ثمة ما ينبيء فى رأس أحدهم أن خلافا جديا سيقع حول تعيين البوليس • فالمهم تعيين

البوليس والاهم ان يروه عاجلا فى الساحة .

والبوليس المنتظر فى رأيهم سيرفع الكلفة بينه وبينهم وهذه هي الصعوبة فى الامتحان فكيف يمكنهم ان يتصوروا واحدا منهم والده بياع جليب ، باطنجي ، صياد دبق ، فاعل الألف ، بوليساً عليهم هم الذين تعودوا أن يرفسوه بأرجلهم ؟

وراحت مسألة التعيين ، بهذه الروح ، تأخذ مجراها بالخفاء فى دهاليز دار البلدية . وكان عبد القادر رئيس البلدية الذي وكأنه لم يملأ أحشاءه إلا بالدهاء يفكر لو عرف احدهم من سيكون البوليس قبل ارتدائه اللباس الحكومي لانفجرت الفضيحة .

وانقضى منتصف الليل والمجلس البلدي منعقد . والرجال القلة الذين بقوا بعد هذا الوقت بباب دار البلدية ما عتم ان التحقوا بمنازلهم هم أيضا ...

وفى الصباح استيقظت احياء البرج على ضجة مخيفة وأخذت الضجة تشتد وتقترب حتى بلغت أكثر الاحياء انعزالا . وكان الخبر يهب مع ريح ذلك اليوم العاتية ، فيدخل المنازل من النوافذ والابواب والشقوق . كان خبرا صغيرا « آل العنان صاروا جندرمة الضيعة » وكان يخيل للسامع الذي يعرف آل العنان بأن الامر مزحة كبرى ، ولكن الامر لم يكن مزحة اطلاقا .

كان البوليس الذي ارتآه المجلس البلـدي بعـد اجتماع خمسة عشر ساعة فتى فى التاسعة عشرة بدينا ككرة تتهاهل بعد قفزة طويلة . هاجت الجماهير . هل اراد المجلس البلدي بانتخاب هذا الشخص ان يرضى كبرياء اهل البلدة الذين يأبون أن ينحكموا من أي انسان ؟ لم يشك احـد بالامر سوى آل العنان الذين قبضوا المسألة بجـد واعتقدوا أنهم أصبحوا زعماء للبرج . وكانت النتيجة الاولى لهـذا الانتخاب لعلعة الرصاص ، ليس في حي آل العنان ، بل كل الاحيـاء أيضـا .

وأخذت الجماهير تتسارع الى الساحة راكضة من كل اتجاه تريد ان ترى سميح العنان بثيابه الحكومية . ويقال بأن عددا كبيرا من الاشخاص اصيبوا بانهيار عصبي مـن شدة الضحك حينما رأوا سميحا بثيابه الرسمية وكان الفتى الضخم يتوسط ساحة عين السكة غير هياب ولا وجل يؤشر ويصفر ويصرخ ويركض بكل بدآنته هنا وهناك كبوليـس حقيقي . ولكن ما كان احد يمكنه ان يتقبل فكـرة انـه بوليس . فهو عندهم بياع حليب ، بياع صبير ، بياع دجاج ، سمسار بقر ، باطنوجي ، يرفسونه فى قفاه مثل كـل واحد منهـم .

وصارت السيارات تملاء الساحة والجماهير تمـلاءها والضحك يملاءها والنسوة اتت بعد الرجال ، بثيـاب الغسيل ، تتزاحمن وتتدافعن، ليشاركن رجالهن هذا الاحتفال المهيب !

رجلان على باب وزارة

قال عباس اذ لم يجد غير الحديث يطرد به الضجر الذي تملكه بانتظار اجتماع اللجنة الناظرة فى قبول الموظفين :

ــ سليم ، هناك سؤال يحيرني .

ونظر اليه سليم ولم يجب . فأردف عباس وقد أثارت اضطرابه نظرة سليم اللامبالية أكثر من الموضوع الذي تردد طويلا قبل اثارته :

ــ نعم . هناك سؤال يحيرني . ولا أدري كيف تسمح لي بالتنويه عنه .

ومرة اخرى نظر سليم الى عباس ولم يجب • وكما بالسابق أطرق وبقي جامدا يتكىء بمرفقه على الجدار • كان يعرف ذلك السؤال الذي بات يتوقعه من كل شخص •

اردف عباس وهو منزعج من الاضطراب الذي استولى عليه على نحو راح يحرك يديه وشفتيه فى الهواء بتفاهة :

ـ سليم ، أظن ان لك ما لاخيك من الايراد الذي يدخل عليكم •

ومرة اخرى قاطعه سليم بنظرة لامبالية • وقد بقي جامدا وان كان الان يصغي على نحو مسل •

ـ فلماذا اذن تسمح لاخيك بأن يأخذ كل شيء وتبقى انت مفلسا ؟

وحرك سليم قدمه بالأرض بطريقة ما . كانت حركته عصبية لكنها مسلية . لأول مرة يرى فى صديقه شخصا اخر • وكان الامر يثير أعصابه مع انه كان نفسه أكثر الاشياء المسلية بعد انتظار ساعتين في مدخل الوزارة الواطيء المشوب •

وتقدم سليم خطوة واحدة مبتعدا عن الجدار • كان كل جسمه قد تخدر • وعندما تحركت شفتاه بغمغمة : « دع عنك ذلك » كان الامر مجرد طرد للسأم الذي استولى عليه •

أردف عباس بعد ان هدأت نفسه قليلا أثر هذه الكلمات .

- كادت أمي البارحة أن تصارح والدك بالأمر . بل كان بودها ان تخاطبه بالشدة التي تقتضيها الحال . فلماذا يسمح والدك لنفسه بأن يخصص كل ايراداتكم لاخيك حتى وكأنك لست انت ولدا له ؟

وقبل أن ينهي عباس عبارته كان سليم يتأمل في الارض . لقد بدأت ثرثرة عباس تغيظه . وصار الشيء المسلي الوحيد عنده أن يتأمل فى الارض . وشعر عباس ان ابن خاله لا يصغي اليه . فأراد ان ينهي الحديث . ولكنه رأى أن عليه قبل ذلك ان يستدرج كلمات اخرى من فم سليم الذي انطبقت شفتاه بقوة حتى كأنهما لحمتا بالاوكسجين :

قال عباس :

- سليم ، أنت لا تنطق ؟

ورأى سليم ، تجاه الالحاح ، ان ينطق . وكان يأمل لو تنازل للمرة الاخيرة وتحدث فى ذلك الموضوع الا يصبح ابن عمته ثرثارا :

- عباس ، ان ما تقوله يجب الا تقوله ..

وبدا لعباس ان يخرس . ولكن الجواب الشديد الذي لم يفهمه جعله يتابع الثرثرة وكأنه مرغم عليها ؟

ـ .. ولكن انت عاطل عن العمل . وفى هذه الحال من حقك ان تنال نصيبك من الايراد .

ـ عباس ، ارجوك ، دع عنك ذلك .

قالها سليم ، هذه المرة ، فى عصبية ظاهرة . ولكنه سرعان ما عاد الى هدوئه حين رأى نملة صغيرة تحاول ان تتخطى حذاءه لتصل الى حبة قمح . ورفع سليم حذاءه يسمح لها بالمرور . احس وكأن ذلك هو اخر شيء مسل يشغله وان عليه بالتالي ان يعاود السؤال عن اجتماع اللجنة . ولكنه حين نظر ثانية الى النملة وجدها تدور حول حبة القمح عاجزة عن حملها . ومرة اخرى دارت النملة حول حبة القمح ثم عالجتها ولكن بدون جدوى . وانكفأت أخيرا فى الخط الذي أتت منه . فراح سليم يرقبها حتى نسي العودة الى السؤال عن الاجتماع . وعاد بعد برهة فتذكره . والان حين رآها تعود برفقة نملة اخرى تذكر انه نسي فى غرفته بطاقة التوصية التي اخذها من الوزير السابق . وارتبك بعض الشيء . هل يعود الى المنزل ليحضر بطاقة التوصية ام يقابل اللجنة بدون البطاقة ؟ ولكن ارتباكه لم يدم . فقد انحنى وقرفص وراح يتأمل مشهد النملتين الزاحفتين برتابة نحو حبة القمح .

الكونت مونتمرت

ذات ليلة حمل الكون مجنون واخذ يشقلبه ويركض به ويرقص والكون المسكين يهتز ويزلزل ويتحطم بين يديه . وفي تلك الاثناء ، وسط العواصف والامطار والرياح تداعت مقبرة مونتمارت فاختلطت الموتى وتناثرت . ولم يكن بين الاجداث من يذرف الدموع للحالة التي وصلت اليها اكبر مقبرة بباريس الا الكونت مونتمارت الذي تحمل اسمه . وذلك المجنون الرهيب الذي راح يشقلب العالم لم يرحم الشيخ الذي كلفه بناء قبره الشامخ الطود مبالغ طائلة . وكان المسكين منذ سبعماية سنة يسكن هذا القبر

متنسكا ، زاهدا بالموت والحياة .

صحيح انه كان فى حياته قد اقترف اشنع السيئات واعتدى على فتاة ماتت على الفور لكن الا يكفي ، جزاء ما اقترفت يداه ، موت خمسمائة سنة حتى يأتي ذلك المجنون الكافر ويعبث بعظامه المتهالكة . اضف الى ذلك ، ان مونتمارت المسكين لم يتلق زهرة واحدة منذ خمسماية سنة بل على العكس تلقى اكثر من اهانة واخرها عندما بال عليه احد ـ كلوشار ـ باريس ثم احد كلابها .

ويرتفع الكونت رأسه بحذر ويحدق الى الاجداث . يا للعار . انها مختلطة متناثرة مجموعة من الاقدار والعظام المهترئة . وكان اقرب الاجداث التي تداعت جدث صديقه الكونت لويس نابليون ـ ليس نابليون الثالث بالطبع فهذا ارفع من هذه النهاية ـ وجدث خادمه المخلص ريمون الافون . كان الاول طويلا كبير الجمجمة وقد ظهرت ساقاه الرفيعتان عاليتين فوق التراب ، بينما انغرز اسفله داخل الحجارة . وكان الاخر قصيرا محدودب الظهر ـ لكثرة ما كان ينحني له ـ مسكين ـ وكان خارج العظام كليا من القبر وقد ارتمى على وجهه فوق مرتفع من الحجارة مادا ذراعيه الى ما فوق على نحو من ركل فى مؤخرته عاويا او ضاحكا .

وصرخ الكونت وقد آلمه المنظر :

ـ لويس . يجب ان تفعل أي شيء .

اننـــا اصبحنا خـــارج قبورنـــا ـ ولكـــن ليـــس هذا البعث . انه شيء اخر . شيء هو النهاية . اذا كـــان الاخرون يأخذون المسألة بالهزل . فنحن الاشراف نحـــن الذين كان الناس يسجدون لنا ، لن نأخذها بالهزل اتفهمني يا صديقي لويس العزيز ؟

وحرك لويس ساقيه فى الهواء وكأنه يطرد عنه تلـــك السخافة :

ـ لقد كنا . لقد كنا . الم تتعلم الاعراب ياكونـــت مونتمارت ؟

ـ لويس انترك هؤلاء الخدم والصعاليك والاعـــداء يشمتون بنا ؟ انظر الا تراهم يتهامســـون ويضحكـــون ويتملقون . ما اخالك بدون احساس يا لويس .

ـ وما دخل الاحساس هنا يا مونتمارت . بل يجب ان اصارحك الحقيقة : اني اود لو اضحك مثلهم .

ـ ماذا يا لويـــس . تضحك ؟ ومن أي شـــيء تضحك ؟

ـ وهم من أي شيء يضحكون ؟

ـ انهم سفلة .

ـ ونحن . نحن ماذا ؟

ـ انا لا افهمك يا لويس انك تبدو غريبا هذا المساء •

ـ حقا يا مونتمارت • انني لعظيم الدهشة مما اشعر • الا تشعر ـ ماذا اقول ـ الا تشعر ببعض الاشياء الشاذة نوعا يا مونتمارت ؟

ـ لا • ابـــدا •

- اوه . ان هذا ليزيد من حراجة موقفي . أحقاً انك لا تشعر ببعض الاشياء الشاذة نوعا ؟

ـ كلا • كلا • يا لويس • حتـــى ولو ادركتني هذه الاشياء الصغيرة الحقيرة التي تتكلم عنها لطردتها وسحقتها •

ـ اوه ، انك لصخرة شماء يا كونت مونتمارت سواء فى حياتك ام فى موتك • ولكن ماذا افعل ؟

ـ اتريد ان تقول انك عاجز عن ضبط نفسك يا لويس؟

ـ هو الامر بالذات يا كونت مونتمارت •

ـ اتريد ان تقول انك ستضحك •

ـ لست واثقا يا مونتمارت • ولكن لنفرض انـــي ضحكت • انفجرت ضاحكا ـ هل سيحزنك الامر ؟

ـ كلا • ولكني ساستنتج شيئا •

ـ وما هو هذا الشيء يا كونت مونتمارت العزيز ؟

ـ هو ان دمك ليس بدم كونت نبيل •

ـ الهذا الحد بلغت بك الشكوك يا كونت مونتمارت؟

ـ ان النبلاء الاصليين لا ينحدرون الى مستوى السوقة والعبيد لافى الموت ولا فى الحياة •

ـ لكن الا ترى يا كونت مونتمارت العزيز باننا فى الموت ، على الاقل ، قد انحدرنا الى مستواهم ؟ انظر ، انظر يا كونت مونتمارت ان خادمك ريمون الذي احدودب ظهره لكثرة ما كان ينحني لك اجلالا يتمدد مستريحا فى مكان مرتفع • انه يضحك •• الا ترى من حقه ان يضحك ونحن ايضا من حقنا ان نضحك •

ـ الغدر • لو كنت قريبا من هذا الخؤون لرفسته رفسة تكسر عظامه النخرة •

ـ بل انك لو فعلت لكنت مخطئا يا كونت مونتمارت• ان الامر يبدو عاديا . انظر فانا لولا خشيتي ان تغضب لضحكت ـ لانفجرت بالضحك •

ـ حسنا ياصديقي لويس حسنا • اضبط نفسك ودعنا نكون نبلاء حقا • والان هيا بنا نبحث عن وسيلة لستر العار الذي اصابنا • العار • ويلاه العار •

ـ واي شيء يمكن ان نفعله ونحن اموات يا كونت

مونتمارت العزيز ؟

ـ يجب ان نشق الارض . يجب ان نرفع الحجارة . وهذا الطود الذي كان فوق قبري يجب ان يرفع ثانية . العار . العار يا صديقي يلحق بنا وبفرعنا النبيل مـــدى الاجيال .

ـ ويجب ان نوقف دوران الارض ، ونقبض علـى العواصف والرياح ، ونبخر السيول والانهر والبحار وماذا بعد ياصديقي الكونت مونتمارت ؟

ـ يا للسخرية الرهيبة التي تنطق بها يا لويس وكأنك لم تكن نبيلا فى يوم من الايام .

ـ اسمع يا مونتمارت . الهرج والضحك يعلـــوان قبرينا . ان خادمك يملاء العالم بقهقهاته المجنونة واخال ان لديه قرنين وذنبا . واشبهه بابليس .

ـ وماذا يريد منـا هؤلاء الابالسة والسوقة ؟

لا ادري . ولكن كلمة « نبلاء » تفجرهم كالبراكين . لا تعد ، يا صديقي الى النطق بهذه الكلمة او لتكن همسا بيننا . اخشى ما اخشاه ان يدوي الضحك حتى يزلزل القبور ويساقط حجارتها علينا .

يعلو الضحك بنبرة رهيبة مجنونة :

ـ اه ••• اه •• اه •

ويصرخ الكونت مونتمارت برعب :

ـ ماذا حدث ؟ هل ترى جيدا ؟

ـ اجل انهم نفس السوقة والابالسة •

ـ ولكن لماذا ارتفع ضحكهم هكذا ؟ اتحس شيئا يا لويس وانت مطمورا الى نصفك بالتراب ؟

ـ اعتقد بان ثمة صدى ضربات قريبة • انها ضربات معاول •

ـ وهل هذا ما يضحك هؤلاء السفاة والابالسة ؟

ـ يبدو ان عمالا قد اقبلوا وشرعوا يزيلون الاجداث المنهارة • اسمع • ان الضربات ترتفع • انها تقترب اكثر فاكثر من قبورنا •

ـ حقا • اني اسمع • ولكن بربك قل لي اين يضعون هذه الاجداث ؟ لعلهم ينقلونها الى مكان يليق بنا ؟

ـ لا ادري ان آلة لم تكن موجودة في زماننا هي التي تنقل الاجداث • ويلاه • ليتك ترى • انهم يرفعون الاجداث بالرفش كما يرفعون نفايا الشارع • لقد اقتربت نهايتنا يامونتمارت • لم يبق امامهم الا عدة قبور ويصلوا الينا • اما زلت تصر على الا اضحك يا مونتمارت ؟

ـ اتضحك وانا صديقك يا لويس ؟

ـ يا كونت مونتمارت ...

ـ لن تكون صديقي بعد اليوم اذا ضحكت ...

ـ يا كونت مونتمارت ... يا مونتمارت ...
يا مونتمارت .. يا مونتمارت .. المسكين ..

وينفجر الكونت لويس بقهقهات مدوية تختلط بصدى معاول العمال التي هجمت على قبر الكونت مونتمارت تجتث عظامه وحجارته من الاساس .

ايها الموتى .. قولوا لهم

لم يبق سليم يؤمن بشيء غير السفر • ولكن السفر عنده له اكبر سيئة مقابل اكبر حسنة • فعندما يسافر ينبغي ان يسافر معه جميع الناس • والناس ، كما يراهم ، لا يسافرون ، لانهم بلا احساس بلا فكر • وهكذا ، يجد نفسه عند كل سفرة اكثر وحدة من قبل • ولكنه يسافر عندئذ اكثر فاكثر ، ويزداد ابتعادا حتى تضيع فى ذهنه هذه السيئة الكبرى ويضيع معها العالم • يتهافت على ابواب اصحابه ، من زملائه القدامى والجدد ، يخيل اليه ، انه يراهم يرى الانسان الذي يبحث •

وخلال ، ضباب الضيـــاع ، وسماوات البشاعة ، يكتشف انه لم يسافر بعيداً عن الاشخاص الذين يريد ان ينساهم بل هو امامهم ، معهم فى انسفالهم وعهرهم •

ومنظر الانسفال يزيده ضياعا فيستسلم الى الضياع ، يصبح آلة تدور بلا وعي ، يتكلم بلا وعي • وحين ينتبـه الى نفسه ، يحس بنهر يجرفه ، نهر كبير ، من القرف والذل• ولا يهرب فما يزال تحت سيطرة التعهر • وهو يتعهر يصمم على الا يتعهر ابدا •

ويغادر ابواب الاموات • يصفقها وخلفه يضحـك الأموات : انه سكران . وتسأل امرأة عجوز قطب الجهـــل جبينها : لماذا تستقبلون هذا السكير ؟ ويجيبها شبـــان يافعون « انه يسلينا » وعندما يمضي الى منزله ، يدور فى ذهنه كل ما يدور فى غيابه بين المتعهرين ، ويصمم على ألا يعود •

لكن الشيء نفسه يحدث ويحدث ايضا وكأنه سيحدث ابدا • سيعود اليوم وغداً وكل يوم الى الشاب الـــذي يقول انه مسل وسيعود الى المرأة العجوز التي تقـول انه سكير • سكير ولماذا لا تقفلون الباب بوجهه ؟ ويكون قد شرب ليترا من العرق فيشرب ليترين • ويعود الى الابواب نفسها الى باب الشاب الجاهل • والى باب المرأة الحيوان • ولماذا تستقبلون سكيرا فى بيتكم ؟ (انه مسل آه • آه •) من يضحك • لا احد • هو الذي يضحك • لماذا لا يضحك ؟

الضحك هو المجد . الضحك هو الله ؟ اذا لم يكن هـــو الضحك فمن هو الله ؟

ويعود ، مرة ومليون مرة ، الى اولئك الذين يضحكون منه . لماذا يضحكون ؟ لا يهمه ان يعرف . المهم انهـــم يضحكون . وهو يريد ان يضحك اذن فالضحك هو صلته الوحيدة بهم (انا اضحك فانا موجود وهؤلاء يضحكون فهم موجودون) . هم موجودون وانا موجود واذن فنحن من عائلة واحدة .

ــ السنا نحن من عائلة واحدة ايتها العجوز اللئيمة ؟

وتقف العجوز بالباب وتصرخ :

ــ ماذا تريد ؟

يقول لها :

ــ اريد احمد .

تقول العجوز :

ــ احمد ليس هنا ... احمد فى المطبعة .

يقول لها :

ــ حسنا اريد هدى .

ــ هدى ... فى الحمام ...

هدى تحبه . لكن لا تحبه . الامر يتعلق انه لا يملك وظيفة والوظيفة ان تكون واحدا من المجتمع . وهـــو

خاطىء أو غير خاطىء يرى انه في مجتمع منسفل ويرفض ان ينتسب اليه • لا يرفض هدى كاحلى فتاة رآها ، يحبها ، يريد ان يصنع من ذريتها بشرا جديدا لكن هدى ترفض لانه ليس من مجتمعها • هذه المشكلة • بالحقيقة لا يرفض هدى ولكنه يرفض مجتمع هدى • ومن جديد ينقلب فى متاهات الضياع • يتسكع على الابواب • العجوز التي تقول انـه سكير • ابنها الذي يقول ، اننا نستقبله لانه مسل « اننا نضحك • لاننا نضحك يجب ان نستقبله » وتضحـك العجوز تضحك لانها لا تفهم شيئا •

ومن خلال سماوات البشاعة يشعر بانه يجب ان لا يكون • الكل يضحكون منه • الكل يتسلون به • الكـل لا يعرفون اسمه • (سأذهب الى بيت آخر • غدا أذهب الى بيت آخر) ويذهب الى هذا الباب ، الى هذا الحي ، يدور بيروت ، يدور لبنان ، يدور العالم • بعد كل دوراته لا يلقى غير المرأة العجوز التي تهدد بان يجب الا يستقبلوه ، وغير الشاب الذي يقول انه مسل • عندئذ تصبح سمـاوات البشاعة رقيقة ناعمة بلا معنى • عندئذ يصبح وحيدا لكنه يشعر انه مع وحوش • ولن يذهب الى بيت • الجميـع تافهون لا يمكنه ان يعود اليهم وهـم وحوش بالرغم عنهم • وهو ايضا وحش لا نه لا يستطيع ان يعيش بـدون عالمهم. وحش وحش وحش وماذا يهم ؟ ولكن مأساته انه ليس وحشا • ويعود الى الوحوش ، يريد ان ينسى نفسـه وسطهم . و بعد مليون مرة ، يجـد المرأة التـي لا تـري

فيه الا سكيرا والرجل الذي لا يرى فيه الا مسليا • وهدى التي لا « تغادر الحمام » ! ويتسائل من انا ؟

ويقول لنفسه : انا لست شيئا • لا انا بالسكير ولا انا بالمسل • (انا ايها الذين جهلة حتى اليوم) • انا لست منكم ولم اكن فى يوم من الايام ابنا لكم ؟ من انا ؟ جسد بدون روح . ميت بدون تابوت • الى ايـن اذهب ؟ اجل • سأذهب الى حيث يذهب الموتى •

« محمد الرادوف » هو قبر الوالي فى بلدته • (انا بالضبط) منذ الف سنة اقيم لمحمد الرادوف قبر ومعبد • من هو محمد الرادوف • اله ؟ نبي ؟ لا شيء ؟ هو ما لا يهم • محمد الرادوف لا شيء لكنه يملك استقلال نفسه • ربما لانه لا شيء هو موجود ، فى قبره ، فى معبده ، افضل من النهر الحي الجريء الذي يطفو بالجثث • اذن الذي يبحث عن وجوده ، ليس الا محمد الرادوف • والى ان يذهب الى الرادوف سيظل يبحث عن وجوده •

ويذهب الى الرادوف • الامطار غزيرة . الجو ملبد • لا يقي نفسه الا بمعطف ايطالي رقيق والرادوف فى قلب المقبرة • يدخل الباب ، وسط الظلام ، يتعثر بالقبور ، بالشواهد ، بالحجارة بالاشجار ، بظله ، باوهامه ، بجثته • ويخرج من كل هذا بضحك مدو : ايها الرادوف ، يا من تعيش منذ الف عام ، اين انت ؟ ولا يسمع صدى ولا أي

شيء . المطر والرعد والبرق والظلام . والرادوف مات منذ الف عام . مات . لا الشموع ولا الاغطية الخضـــراء ولا الدعاءات ولا الصلوات ولا الصراخ تعيد الرادوف الـــى البرج .

ويشرع سليم يديه وسط العاصفة والرياح والمطر يهجم يصرخ عاليا : ايها الموتى قولوا لهم انكم صنعتم ولكن بعد فوات الاوان عائلة واحدة .

الذي يخطب في نيام

يأبى محمد الا أن يجادل فى كل موضوع .. وبحكم اننا فى غرفة واحدة ترى كلانا مضطرا الى سماع الاخر . درس الطب البيطري ولم يترك فسحة فى ذهنه لغير اسماء الحيوانات والحشرات وأمراضها التي يحفظ منها أكثر من خمسماية الف اسم . قال لي ذات ليلة ، أيقظني من النوم ليتابع نقاشا بدأه معي فى السهرة :

ـ لم تقل لي ما هي مشكلة العالم المعاصر ؟

وفركت شعري وفركته عشرين مرة ثم دفنت نفسي فى

الفراش ورفعت الغطاء الى ما فوق رأسي وقلت :

ــ المشكلة فى اننا لا ننام •

وسمعته يقول من تحت الغطاء :

ــ هذه الفكرة فكرتي • الم أقل بأن مشكلة العالم المعاصر فى انه لم يعد يقدر على النوم ؟

قلت فى نفسي :

ــ طالما ان هناك أسئلة كونية يطرحها بياطرة ••

وسمعته يقول :

ــ ومع ذلك تقول انني لا أفهم الا فى الطب البيطري

قلت بفارغ الصبر :

ــ أرجوك • الليل انتصف ولي أعمالي فى الصباح •• وأنا مهدود ••

قال :

ــ لكنك طرحت علي سؤالا وسكوتك اعتداء على فضولي العلمي •

ولم أجب • فأردف فى اصرار :

ــ تأمل أن سؤالك يبعد النوم عن عيني •

ولم أجب أيضا • اخيرا أحسست بيد فوق الغطاء

وارتفع الغطاء شيئا فشيئا عن رأسي

ــ يا أخي •• اشفق •• أنا •• ثرثار • انا بيطري لكنك تركت فضولي العلمي جريحا •• فبكل ما تعبد •• ما هي مشكلة العالم المعاصر ؟

قلت لاتخلص منه :

ــ المشكلة فى وجود أمثالك من الاميين •

وصرخ وهو يقفز من السرير :

ــ أنا ؟

قلت بهدوء :

ــ ••• انت ••

ــ لكني دكتور وشهادتي تملاء نصف الحائط •• وقد درست فى أكبر جامعات اوروبا المعترف بها فى انحاء العالم ؟

ــ ودرست الكلاب والقطط والبغال والبقر ولم تدرس شيئا عن الكلاب والقطط والبغال والابقار البشرية •• وعندما حاولت ان تدرس الانسان درسته كحيوان لا كانسان ••

ــ لكن هذا لا ينفي انني مثقف •• أليست الثقافة فى ان تنهي دراستك الجامعية ؟

ــ هذا ما أقصد : أنت امي والعالم المعاصر ايضا لإنه درس فى الجامعة فقط •

ـ أتريد ان تلمح الى الاختصاص ؟

ـ انا لا المح اليه بل اعنيه ... فاختصاص بـدون ثقافة الى جانبه يمنعنا من ان نطل على عالم غير الزنزانة التي فرضوها علينا .. ولهذا فانك ترى الكتاب والفلاسفة أوسع أفقا لانهم يلمون بكل معرفة .. أوسع أفقا وأكثر انسانيـة ..

ـ مهما يكن فالاختصاص وحده لا يضر ..

ـ وحده .. الم تلاحظ ضرره فى نفسك ؟

ـ ... أنـا ؟

ـ نعم أنت .. النموذج لاميي العالم .

ـ كيـف ؟

ـ أنت ولد .. ما تزال ابن بكالوريا فى ثقافتك .. انت لا تعرف شيئا غير امراض الكلاب الى اخر المعزوفة البيطرية .. وبهذه الحال فأنت انسان جاهل .. انـت مشلول .. انت عبد .. انت اداة حقيرة .. انت أسير هذه المكنة الجماعية المغرورة التي نسميها العالم المعاصر ..

ـ لكن لي ارائي الخاصة . وليس من ينكر ان لي اراء صحيحـة .

ـ ليس لك من الاراء الصحيحة الا أن تحل مشكلة اسهال عند كلب .

ـ لكن •• ان ينصرف كل منا الى العمل الـــذي اختص له ، هو هذا التقدم ••

ـ من غير ارادة تريد ان تجرني الى الحديث •• اللعنة

ـ ••• دائما انت انت •• عندمــا انتصر عليــك •• تتهرب •• انا سألتك سؤالا هو النقطة الحاسمة فى موضوعنا ولـــم تجـب ••

ـ أي ســؤال ؟

ـ هل مشكلة العالم المعاصر هي الاختصاص ؟

ـ وماذا تقصد بعبارة اختصاص ؟ هل تريد ان تقول ان ليس من اختصاصك أو اختصاص جميـع النـــاس ان يناضلوا من اجل سلامتهم او من اجل بناء عالم أفضل ؟

ـ هذا الاختصاص الاوسع •

ـ هذا الذي اقصد • كل ما لا يتعلق بهـــذا الاختصاص الذي هو المسؤولية المفروضة على كل واحـد كشرط لانسانيته هو الجهل ••

ـ ذلك شيء بديهي •• الا تظن ذلك شيئا بديهيا ؟

ـ كلا • كلا • بالاحرى لا أظن انك فهمت حتى الان مـــا أقصد ••

ـ انت تتهجم علــي •

ـ انا لا اتهجم على أحد • انــا اقرر واقعا • انــت

تقول بأن الاختصاص الشامل او المعرفة بمعناها الشامـــل ضرورية •• وانت لا تملك شيئا منها • ولا تملك بالاوضاع الحالية الوقت اللازم لتحصيلها وهو حال الاكثرية الساحقة من الناس • انهم يرتبون كل شيء لكي يجمعوا أكبر الثروات الممكنة •• والواقع انهم يربحون كـــل شيء ويخسرون أنفسهم كما يقول المسيح •

ـ كيـــف ؟

ـ انهم يبيعون سعادتهم •

ـ لم افهم !

ـ من اجل المال يضعون على عيونهم نظارات واحدة لا تريهم الا لونا واحداً وشكلا واحدا وجسما واحدا •• وهذا ما اسميه الموت ويسمونه الاختصاص ••

ـ عدت الى التهجم ••

ـ معك حق •• والحقيقة انني لا اجادلك •• انـــا الان مثلما الانسان يتحدث مع نفسه انا غاضب •• غاضـــب •• غاضب •• ولا املك خصوصا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ان اجادل حتى لو كان سقراط جاءني من خلــف ثلاثـــة قـــرون ••

ووضعت رأسي بين يدي وقد أحسست بحرارة ودوار

ومضت برهة جرى الصمت خلالها كشلال صخب •• وخيل الي انه نام • لكن كالمرة السابقة احسست بيد فـــوق

الغطاء ثم ارتفع الغطاء شيئا فشيئا عن رأسي ٠

ـ لا تغضب ٠٠ ارجو ان تتابع ٠٠ لاول مرة أستطيع ان أتابع ٠٠ ربما اني أمي ٠٠ وقد أكون اميا بالفعل ٠٠

ـ بدأت تفهم ٠٠ ولكن لا تشكر منطقي بل اشكر عصبيتي التي عبرت بها عن منطقي ٠ الحقيقة انتم الاميون تعودتم الا تفهموا بغير المنطق العاطفي ٠٠ او بالصراخ والضرب او مثلما يقول الصينيون لا تؤمنون بالحقيقة الا بعد ان تنهال كالمطرقة على رؤوسكم ٠٠٠

ـ حسنا ٠ سأتركك تفجر ما فى صدرك ٠٠ المهم ان تستمر ٠٠٠

ـ استمر بماذا ؟

ـ بالنظارات الواحدة واللون الواحد والشكل الواحد والحياة الواحدة ٠٠

ـ ٠٠٠ انهم يضعون هذه النظارات على اعيننا حتى نرى مملكتهم كما يرودوننا ان نراها فتبقى الاحوال في المجرى الذي يشاؤون ويبقى الظلم ظلما والعهر عهرا والعبودية دهرا ٠٠

ـ وماهي هذه النظارات ؟

ـ هي الشهادة التي تتكلم عنها والتي تملا ءنصف حائط ٠٠٠ والني هي برهان على اختصاصك بالعبودية ٠٠

ولكي تأخذ هذه الشهادة يجب ان يحفظوك سـلالات وسلالات وسلالات البق حتى لا يبقى لك مجال او وقـت للتفكير بغير عالم البق • وعندما يتأكدون انك لم تعد تهتم بغير عالم البق أي لم تعد تساؤليا مزعجا بالنسبة لمملكتهم يمنحونك العار والذل والاوسمة •• أما من هم اولئك •• الاخرون •• انهم ليسوا مثقفين على الاقل •• وليسـوا عباقرة ايضا •• فهؤلاء ناس مثلك •• جهلة ومغـرورون • ولذلك فغذاؤهم كأسيادهم وهم يؤمنون بجهلكم بهم كعبيد ذئاب كبار وذئاب صغار •• اساد وعبيـد •• جوعـى ومجوعين •• مسخرين ومسخرين •• هذا هو نتيجـة اختصاصك العالي الذي لا ينظر الا بعين واحدة وباتجـاه واحد •• انت لو كنت مثقفا •• لو كنت دكتورا حقا لما نمت قبل ان تقود تظاهرة ضد الحرب فى الفيتنام •• دون ان تشكل محكمة لمحاكمة مجرمي الحرب فى الفيتنام •• دون ان تعمل بجميع قواك ضد المستثمرين والمستغلين •• دون ان تنادي بحريات الانسان •• بحقوق الانسان فى ان يتعلم •• فى الا يجوع •• فى الا يحرم من الثقافة •• انت لو كنت مثقفا لهززت الارض من الشرق الى الغرب •• محرضا على المعتدين •• منتصرا للبائسين •• موعيا الجاهلين وان كانوا فى بلاد الصين •• لماذا لا تفعل ؟ لماذا تظل كالدابة العوراء لا تأكل الا من جهة واحدة ؟ أليس لان الثقافة الامية..لاتسمح لك بان تدر وجهك عن قفا الحمار •• حتى لو زلزلت الارض .. او انفجرت السماء .. او بال الحمار.. ؟

وسكت لحظة وكأن لا جدوى من كل ما قلت وما سأقول • فعدت واندسست فى الفراش ورفعت الغطاء الى ما فوق رأسي •

مرة ثالثة أحسست بيد فوق الغطاء وارتفع الغطاء شيئا فشيئا ولكني أعدته بعصبية الى ما فوق رأسي وصرخت :

ــ قلت كل ما عندي ولم يبق لي الا أنام ••

ولم يرفع الغطاء ثانية • ومضت لحظة • وخيل الي انه نام •

ــ هل نمت ؟

ــ ما الذي تريده أيضا ؟

ــ اريد ان أعرف ما الفائدة من تلك المعرفة الشاملة ؟

أجبت من تحت الغطاء :

ــ أظن اني ذكرت هذه الفائدة • حسنا تذكر ما أقوله الان جيدا : ان عالمك الجاهل المغرور لهو الهشيم وقد صار قابلا اما للحرق بالنار او بالنور • ففي الحالة الاولى سيكون دماره وفى الحالة الثانية سيكون مستقبله العظيم •• وان عودا من المعرفة ستمنع أنفاس الملايين التي تتلاصق كل يوم على موائد الجريمة والجوع من اشعال الشرارة التي تدمر العالم •

وتابعت بنبرة مختلفة شعورا بانبعاث أفكار مرتبة فى رأســــي :

ـ محمد ••• الا يساورك الخوف حين تنزل الـــى بيروت وترى هذه الملايين المتراصة المتزاحمة الخائفة العاطلة عن العمل ، تروح وتجيء ، قلقة جائعة ، تبحث عن طعامها كيفا اتفق ؟ •• الا يساورك الخوف ؟ الا يعود بك الـــــى صورة عالم بلا قيم ؟ •• عالم بلا امان •• ؟ وهذه مـــدن الارض هي ايضا تختنق أكثر فأكثر بالجوعى والمرضـــــى والمشردين •• حيث لن يبقى طعام لفم وحيث يبدأ النـــاس بأكل بعضهم البعض ؟ سيحدث هذا يا محمد وربمــــا سيحدث أكثر اذا لم نتسلح بالثقافةالى جانب التخصص لكي نوقف هذا العالم المجنون الراكض خلف الفهم الكـــاذب وراء الجحيم •

وسكت • وأدهشني الصمت الذي ساد الغرفــــة • لاحظت شيئا فرفعت الغطاء والتفت • فاذا بمحمد قــــد نام • ولا ادري ما جرى فقد امتدت يدي ونعرته فـــي ظهره والقت به خارج السرير •

ـ مـــاذا دهاك ؟

ـ كنت نائما طيلة هذا الوقت ؟

ـ أنا ••• نائـــم ؟

قال وهو نصف نائم ثم نهض لينقلب في الفراش .

انسانية الفئران

مثل مئات الهررة فى الحي وجدت نفسها مطرودة خارج باب الغرفة هامدة تنقزز الخيبة فى عينيها وقائمتيها •

العتبة ملساء باردة ، تنفلش عليها ، منتفخة البطـــن ، مشعثة الشعر ، متوترة العينين ، لملامحها ذعر متململـــــل ، دائرة ظهرها الى الغرفة ، هذه الغرفة الكبيرة التي اتسعت لها كل حياتها فى فراش مريح تغوص فى حريره حتى الانف •

الغرفة حتى الان غرفتها • من على العتبة التي يتوزع فيها عالمها رأت سلمان • يروح ويجيء على المصطبة المجاورة يسقي زهرة من هنا ونبتة من هناك وينتظر الغداء وبقيـــة

الاسرة • هي تموت وسلمان لا يبالي بها • للعتبة بـــرودة ثقيلة • الدالية فوقها تنهمر بالعناقيد من خلل قدد الخشب • ساقها الرائعة تتعمشق على طول طابقين • جذع عضلـــي كأفعى طالما أخذته قادومية الى غرفتها حين ينساها سلمان • ما كان أقواها يومئذ • بعد العتبة كان الدرج ينزل طابقين الى بيت أهل سلمان • ثم الباب العريض الذي كان الاهــل يطبقونه فى وجهها بعد ان يرمونها بالقباب •• وحده سلمان أحبها لكنه أحبها حتى الان •

ظنت ان سلمان يختلف عن بقية العائلة ــ ربما كــان مختلفا عنها حقا ــ ولكن كيف يطردها مـــن غرفته فـــي اللحظة الحاسمة ؟ هل هو لم يلحظ كيف تراخت قوائمهـــا وانتفخت بطنها ؟ هل هو لم ير كيف غادرت الفراش ببطء وصارت تتخلف ، تنهض وتقع ؟ ربما ولكن لماذا لم يمهلها حتى تخرج من الغرفة بنفسها حتى يدفشها دفشا ؟

وفتشت الهرة بعينيها بين الازهــار المزروعة فـــي القوارير التي تملاء السطحية ، فوجدته منكبا فوق وردة حمراء • اكتشفت اخيرا انه يطفيء رأس سيجارته فى الرمل• كان مقرفصا وقد حط ثقل رأسه فوق صدره وتقـــوس ظهره بشكل رائع تحت كنزته الكحلية • وكـــان الفضاء ، فوقه ، متساميا ترتسم الدالية تحته فى لوحة صغيـــرة بلـــون باهـــت •

ثم رأت الهرة المائدةتكتمل بالصحون والاباريق ورأت

ام سلمان تربت على كتف سلمان المقرفص تريـــد ان تذكره بالطعام . وجلسوا جميعاً .

كانت الام بدينة ترتدي طقما سميكا من الشحم وفوق الطقم طقما اسمك من الصوف وكان البرد شديدا • والعتبة تزداد برودة مع تكاثف ظل الغيوم • ولم تعد الهرة تـــرى بعينها الصافيتين الماهرتين سوى صورة امسلمان تكبر وتكبر وتستولي على كل شيء ••

ثم صورة سلمان ذا الوجه الرقيق الناحل الذي يمتـــد ويشف فى الفضاء • وكانت الان تراه من جانب واحد ، يرفع بين اصابعه الطويلة السمراء كأسا من النبيذ •

ثم اكتملت بقية العائلة النسوة في ملابس جديدة انيقـــة ملونة • وداست على ذنبها الابنة الصغرى ، ثم رفسها الابن الاصغر ، وشد آخر شاربها بتغنيج كريه • لم ترى الهـــرة من الجميع سوى الاذى والثياب المهفهفة والشعر الحليـــق والوجوه التي تتكدس فوقها الالوان • وفي طرف الطاولـــة جلست الابنة الكبرى ترتدي ثوبا قصيرا يكشف عن فخذيها الضخمين ومن تحت سروالها عن آثـــار حب الشباب الذي يملأ اعلى الفخذين • حين نطقت الابنة الكبرى نطق الجميع• ولم يصل للهرة من اصواتهم الا كلمات متأوهة :

ــ اليس مجنونا من يحتفظ بهذه الهرة الجرباء ؟
وقالت الام :

ـ بدلا من ان تهتم يا ابني بحيوان اهتم بابن لك •

وعندئذ فقط بدا للهرة وجه سلمان كاملا • كان قاتما يشد من اسفله بربطة عنق سميكة • هو واخوه يرتديان يرفعان الكؤوس ذات المشروب الناري • هو واخوه الاكبر نفس الطقم ونفس الربطة ويجلسان معا •

حين استدار الابن الاكبر ، بدا انه استدار نحوها ، فانتفضت عيناها للنظرة المهينة وماءت وصارت تمؤ على نحو رتيب •

وبمواء الهرة التفت سلمان وتحرك معه الجميع •

صرخ احدهم :

ـ انها تناديه •••

ونهض وقالت الابنة الكبرى :

ـ كبر عقلك يا اخي •

فقال :

ـ لم تأكل منذ الصباح •

ـ اكلت او لم تأكل ما همك انت ؟

وتابعت الهرة المريضة مواءها :

ـ ماو ••• ماو •••

ولاحظ سلمان في موائها شيئا فلم يجلس وهرع اليها •

ـ ماذا! دهاك يا هرتي ؟ لماذا انت منفلشة البطن ؟

وربت على ظهرها حتى سكنت وعندها عاد الى مقعده • احضر لها قطعة لحم وقدمها على لوح من الخشب • بقيت الهرة جامدة في مكانها •• لا تدنو من قطعة اللحم ولا تبالي بها •

عاد مواؤها اقوى من قبل :

ـ ماو ••• ماو •••

وسأل سلمان نفسه :

ـ غريب ! لماذا لا تأكل ؟ هل حزنت لانني طردتها من الغرفة ؟

وماءت اكثر فاكثر • ثم صارت تلوح بذيلها وتنقلب من جانب الى آخر •

قال لنفسه وكأنه يتحدث اليها :

ـ انا لم اطردها • انا اردت ان اخرجها من الغرفة لكي تنطلق وتتحرك وتلعب وتتنشق الهواء النقي •••

وضحكت !الابنة الكبرى وارتمت على ظهرها • وشرب الابن الاكبر كأسا آخر • وربت سلمان على ظهر الهرة يرجوها أن تأكل •

كان مضطربا لا يعرف كيف يتصرف وعاد الى المائدة وعاد السكون الا من صوت الملاعق ومضغ الطعام • نفذت رائحة

اللحم المشوي الى رئة الهرة وتحسرت وانتبهت من سهادها على صوت الابنة الكبرى :

ـ انك لا تأكل •

• لم يجب سلمان •

ورد الابن الاكبر هامسا من خلف ظهره :

ـ سيأكل عندما تأكل الهرة •

وقالت الابنة الثانية :

ـ حقا ؟

وانتبه سلمان اليها وقال :

ـ ماذا ؟

ـ حقا كما يقول خليل ؟

بصوت مضطرب اجاب سلمان :

ـ فكري جيدا • انها متبدلة •• طردتها هذا الصباح من الغرفة •• طردتها لكي اراها كالعادة تركض وتقفز وتغرز اظافرها بالسجاد ••• ارفض ان اراها في هذا الوضع المستكين •• اليس مثيرا ان ترى هذا الحيوان الضعيف عاجزا عن أن يتحرك .. يرفع نظره اليك .. يتوسل من اجل ان تساعده •• ؟

ونظر اليه الجميع بدهشة • اكتشفت الهرة انه يتكلم وحده وان الابنة الكبرى تقول لشقيقها الاكبر :

ــ •• احمق •• تأمل كيف انهار امام هرة سخيفة •• هل هذا رجل ؟ هل تصدق انه عمل لها حماما اول البارحة ؟ وكم كانت فضيحة وأي فضيحة حين فاجأة الناس يغسلها وهي تتلوى وتصرخ بين يديه •

والابنة الثانية تقول للابنة الصغرى :

ــ الشرب اثر على عقله • تصرفاته تميل الى الجنــون •• تذكري الاسبوع الماضي حين جاء سكرانا واخبر امــه ان اختنا ماتت ؟ كلا ليس صحيحا انه اراد التخلص من ازعاج امه •• هذا لن يقنع اهالي البرج •• ولن يقنعني انا ايضا ••

وقالت الابنة الثالثة للابنة الرابعة :

ــ انا مع امك في مسألة زواجه • عدم انضباطه يجعلــه يسرح في الجنون وفي جنون الحيوانات • هي على حــق فبدلا من ان يربي حيوانات ليربي اولادا له •••

ــ وهل تقبل بنت في العالم ان يتزوجها على طريقته ؟••

ــ طريقته •• هي ليست طريقة •• هي الجنون عينه •• فاي بنت تقبل ان تتزوجه بدون كتــاب ولا اولاد •

وضحكت الابنة الرابعة وعلقت :

ــ هي حرة وهو حر •• اليس هذا الــذي يسمونه •• عفوا لا اريد ان الوث شرف لساني ولا شرف آذانكم بهذه الكلمة •••

وضحكت الابنة الثالثة بتلذذ :

ــ ولا اريد انا ايضا ان الوث شرف الكلمــة نفسها ••

ــ والانكى انه يتهم المتزوجين بهذه الكلمة بالذات ••

ــ من هذه الجهة هو مجنون خطر •• تأملــي

كيف « يملحس » على رأسها .. يا الله .. كأنها ولده الخاص ...

في اللحظة التي عاد السكون الى المائدة صفقت درفة النافذة موجة من البرد فماءت الهرة واخبأت اطرافها تحت جسمها فدثرها سلمان بحرام وانكب يدلك ظهرها . ثم التفت اليه الجميع بذهول وغضب وقالت الابنة الكبرى :

ــ زدتها يا اخي .. كمل اكلك واتركها « تحل » عنا ..

وانقطع الجميع عن الاكل . رفعوا شوكهم يشيرون اليه ويتهامسون . ولمحت الهرة المنطرحة على عتبة الباب ارجل الطاولة تتحرك خلف سلمان . لمحت الابن الاكبر يدنو من اخيه برأسه الحليق وربطة عنقه المحكمة فينكعه في مؤخرته.

ــ انتبه !!

وانتبه سلمان الى اخيه الذي وقف فوق رأسه :

ــ تبدو شديدة المرض ..

ــ ماذا ؟ شديدة المرض ؟ آه .. آ .. يا للامر الجل ..

وفي اللحظة التي امتدت يد سلمان الى بطن الهرة ليتحسسها رفعت الابنة الكبرى سماعة البيك آب ووضعتها على اسطوانة راقصة وقفزت الصغرى بفرح وحماس واخذت ترقص حول المائدة وحول سلمان الذي يدلك الهرة .

وقالت الابنة الكبرى من غير ان تنجح في اخفاء سرورها:

ــ « يقصف زومك » تعالي كملي اكلك ..

وكأنها عبارة شجعت الصغيرة على المضي في الرقص فانتصبت بقوة ورفعت يديها في الهواء وارخت جفنيها ومدت

شفتيهـا وحركت ساقيها فتحركت مؤخرتهـا البارزة على كعبها العالي واستدارت لسلمان ثم انحنت فانفلشت التنورة وبـدت كـذنب الطاووس واخـيرا انفصـل الذنب وسقط فهاج الجميع وتعالى التصفيق •

لاحظ سلمان وجه الهرة الذي يحملق بالابنة الصغـرى يصفر • يصفر والعينان تزوغان والنظرة تتخشب والبطن تزداد انتفاخا وانفلاشا على العتبة • ورفعت الهرة رأسها الى بين يديه تريد ان تقبلهما وعندها انتفضت وردت رأسها الى ما وراء العتبة • ثم شهقت وشهقت مرة اخرى • ولكنها لم تتنفس بل راحت تفرغ كل ما في احشائها •

ثم انقلبت بعصبية واجتهدت ان تنهض • نهضت ووقعت وسقطت وسقط رأسها • سقط رأسها وسكن وكأنه انفصل عن جسمها وجعلت تموء وتموء •• تتلوى •• تمد ساقيهـا ••تخبط ساقيها كديك ذبح للتو ••

عندها هجم سلمان على امه :

ــ امي •• رحمتك يا امي انها مسمومة •• من فعل هذا ؟

وقالت الام في لا مبالاة :

ــ ومن تظن وضع لها السم ؟ اذا كانت حقا مسمومة فهو هذا اللحام صالح •• الذي يكره جنس القطط ••

واسرع الى الهرة فحملها بين يديه ووضعها فى حرام على كنبة وبقي يتأملهـا . كانت تتلوى وتمد ساقيها وتخبـط بهما• ورأى عينيها تتسامكان وتستحيلان اكثر فاكثر حدقتين من الزجـاج المتخشب • ورأى قوائمها تنتفض وتتراخى •

وبقية العائلة لا ينظرون اليهـا يلتهمون الطعام والصحـون والملاعق ويثرثرون •

ثم انتبه اليه الجميع فعادت اشواكهم وملاعقهم وسكاكينهم تشير اليه وتضحـك وهم يمضغون بأحناك غليظة وينتزعون نسلات اللحم ونثرات العظم من بين اسنانهم •

وضحكت الابنة الكبرى • وتدشت الابنة الصغرى ثـم نهضت وخصت الهرة بنظرة ثم بحركة وأطلقت ضحكة وراحت تدور على افراد العائلة تجلس بقرب هذا وتتحدث الى ذاك وتلف كالدولاب على الجميع ثم تركض تعود الـى مقعدها تجمد في الطاولة في صحنها تغطس بيديها في التبولة والكبة النيئة ومحشي الكوسا •

ـ أمي ! صاح سلمان .

لم تجب الام •

فدنا منها متوسلا :

ـ امي • شربيها فنجان زيت • زيت ريثما احضر الطبيب• ونزل الدرج راكضا • وعندما غادر البناية رأى امه وبقيـة العائلة ينادونه من فوق السطح :

ـ ارجع •• الهرة ماتت ••

وعاد راكضا • حين وصل كانت الهرة ساكنة •• متهدلـة الاطراف متراخية الرأس • ولكنها لم تمت • ترفع رأسهـا ثم تسقطه تنظر اليه بعينيها المتخشبتين ترجوه ان يساعدهـا •• وهو يبحث عن الزيت وامه تتلكأ في احضار الزيـت •• والجميع جامدون في مقاعدهم يراقبون المشهد بلا مبالاة ثم بحماسة ثم بتلذذ •••

قالت الابنة الكبرى همسا :

ــ هذه الهرة •• لن تفلت من قبضة الموت •

وقالت الابنة الثانية :

ــ لن اسمح لاحد بان يقتني هررا في هذا البيت •

وقالت الابنة الثالثة :

ــ هررة وبراغيث وجنون ••• لا ••• لن يكون هذا بعد اليوم •

وقالت الام وهي تعطي قنينة الزيت لسلمان :

ــ لا ينقصنا الا ان نفتح مستشفى للقطط •

وضحكت الابنة الرابعة لعبارة امها • وربتت على كتفها بخبث وهي تعود الى الطاولة • ونظر سلمان الى من يحضر له طستا لاستفراغ الهرة فوجدهم جميعا يلتصقون بالطاولة ويجمدون بالطعام ••

وترك الهرة تضطجع ودخل المطبخ • احضر الطست ثم امسك بمؤخرة الهرة ومال برأسها الى الاسفل • كانت الهرة هامدة . ومضى الوقت ببطء والهرة جامدة مستسلمة تطبق فمها بقوة •

ثم امسك الهرة بيد وباليد الاخرى شد على فمها وفتحه فتدفق منه ذلك السائل اللزج الاصفر ممزوجا بقطع من الكبد وتذكر ان الابنة الكبرى اشترت كبد خروف في الصباح فجمد وأخذ يرجف ثم لم يشأ أن يعتقد أن الكبد كانت مسمومة • وانتعشت الهرة وفى اللحظة التي غادرها ليحضر الحليب رآها تحرك رأسها ثم رآها تجر نفسها على جانب واحد نحو حافة الكنبة • ولم تستطع ان

تنزل فأنزلها ، فوقفت لحظـة ثم سقطت . وأخـيراً نظرت اليه فحملها من تحت ابطيها واوقفها على قائمتيهـا فوقفت ومشت ثم راحت تدور ببطء حول نفسها . وفجـأة ارتعدت وهاجت واخذت تقفز في الفضـاء لتخبط فـي الارض ثم لترتفع وتخبط من جديد والدم ينفجر من فمهـا وانفهـا ..

ووقف سلمان ينظر اليها مرعوبا . وبدأت قفزات الهـرة تقوى حينا وتخف آخر ثم ضعفت نهائيا واخذت تتلاشـى . وعندها استسلمت وغاصت بفروها المتراخي المرتعد في بركة الدم التي تجمعت من دمائها .

وضع سلمان كوب الحليب على الطاولة وحمل الهـرة وهزها بعنف . رفض اولا ان يصدق . كان قد مضى نحـو سنتين على ذلك الصباح البارد الذي سمع فيه مواء مرتجفا خلف بابه . كانت يومئذ جروا هزيلا مبللا بالمطر يتأكلهـا الصقيع وتموء بلا انقطاع . جففها واعطاها حليبا ودثرهـا وخبأها في الفراش وعندها لم تفارق بيتهم ولا يوم . وتتالت في عيني سلمـان صور ذكريات شتى . كانت الهرة تعرف نبرة صوته ونـبرة خطواته من مسافة بعيدة ، وحين يدخل كانت تركض من الطابق الرابـع لتستقبله وتواكبه مقبلة قدميه متحسسة اطرافه حتى الغرفـة وعندئذ كانـت تنام بقربه متكئة برأسها على ركبته او الى جانبه . قالت له امه انها تسوح طوال غيابه عن البيت قلقة لا يستقر لها حـال حتى يحضر وعندها تهدأ وتروح تحرك ذنبها ذات اليمـين وذات الشمال او تدوره ابتهاجا وكثيرا ما تصعد علـى

ركبتيه فتجلس عليها وتغفو واذا لم يمانع تبلغ ما فوق صدره وتقبله . وكان في حالة التعب يبعدها عنه فتفهم وتجلس قبالته على الارض او على كرسي تحملق اليه بعينيها الرقيقتين بمشاعر عجيبة . وكانت قد اعتادت أن تنهض معه في الصباح وترافقه حتى الشارع . كانت تقف عند قدميه طوال انتظار السيارة ومن قبل ان يبزغ الفجر . وكان ضوء السيارة المتسلط من بعيد يخيفها فتختبىء خلفه او بين قدميه ولا تعود الى البيت حتى تمضي به السيارة وتختفي . ولأنها كانت تنط وتسير بين قدميه صار يخطئها في الظلام . ومرة داس على قائمتها فمنعها من اللحاق به الا انها عادت البارحة ولحقت به بالرغم منه وكأنها ـ فكر سلمان ـ عرفت انها المرة الاخيرة التي تلحق به .

ويهزها سلمان وتهتز الدموع في عينيه . ويضعها فوق مخدة في صندوق صغير ، يروح يلمس شعرها ورأسها ثم يجلس الى جوارها يتأملها جامدا مختنقا لا يدري ما يفعل .

وفرغ الجميع من الاكل فغسلوا وتمددوا على مقاعدهم وأشعلوا سجائرهم وعندها امتدت يد الابنة الصغيرة الى ابرة البيك آب تركزها على اسطوانة اخرى . فتعالى لحن (الهالي غالي) وصرخ الجميع :

ـ قومي .. ارقصي .. ارقصي يا «مقصوفة الزوم» ...

وابتلع صخب الموسيقى المكان والاشخاص وحرك اعضاء وامعاء بقية افراد العائلة. وانطلق الكبار والصغار يرقصون. والموسيقى تنفجر تدوى تمتد تتلوى تنفلش على الحركات والوجوه ...

ـ هالي ••• غالي ••

والموسيقى تشتد وتعلو تدوى وتنفجر ترن على جلد الاحذية وعلى جلد السيقان والارداف والاثداء الغليظة ، والجميع يرددون ••

ـ هالي ••• غالي ••

والصوت يزلزل السكون يمزق شغاف الاذن •• ينغرز في الاحشاء •• وفي رأس سلمان ينز صديدا من النحيب •• والاجسام الضخمة تنحني وتنتصب ••• تدور وتقفز ••• تحضر وتغيب ثم غطى ذلك السائل الكثيف عيني سلمان فلم يعد يرى شيئا •••

تقدمت الابنة الصغرى في غمرة رقصها حيث اضجعت الهرة فبدت كبيرة كبيرة تنتصب امام كائن صغير صغير ••• وخبطت الارض بقدمها وبدأت تنحني وتنتصب تدور وترقص والصخب يمتد ويعلو وينفجر •••

وانهمرت من عيني سلمان تلك الغلالة السوداء وقال :

ـ ابعدي ••• ابعدي عنها •••

وقالت الابنة الكبرى بنبرة مهينة :

ـ ولماذا تتركها في الارض ؟ لماذا لا تحملها وترمي بها في صندوق الزبالة ؟

وقال الابن الاخر : ـ خذها يا اخي خذها •• الا تخشى ان تعفن وتملأ بيتنا رائحتها ؟ وسمع احدهم يقول ضاحكا :

ـ لعله يريد ان يكتب لها قصيدة •

والصخب يشتد يشتد• يصبح غابة من الشوك والحجارة• الشوك ينهمر • الحجارة تتداعى • وينهمر الصخب (هالي

غالي ••• هالي يا علي) ••• وتنفجر الصدور بالضحك •
ـ آ ••• ه ••• ه ••••

ويكفن سلمان الهرة بقطعة من الشاش الابيض يميطهـا بالحرام ويعيدها الى الصندوق ثم يهل عليها التراب • ويجمد امامها دقيقة وفي عينيه يعود يختفي كل شيء النساء والابن الاكبر والابنة الكبرى والوسطى والثالثة والرابعة والطاولة وصحون التبولة والكبة والكوسا والهالي غالي •• في عينيه تنبت على صفحة تراب الصندوقة الأزهار الأولى لفجر جديـد •••

حارس المبنى

قالوا له : « ما دمت عاطلا عن العمل اذهب الى البناية واحرسها . انها من خمس طبقات وقد نهبها اللصوص » . لم يجادل في شروط العمل فمنذ ستة اشهر يبحث عن عمل . وقبل ان يأخذ عشر ليرات يوميا على ان يلازم البناية ليل نهار . كان نهارا من ايار الحارة حين مضى باكرا وابراهيم وكيل البناية ومعه لحاف ومخدة . كان يريد ان يصنع من اللحاف فراشا . ودخل وابراهيم الى بناية من طراز قديم .

كانت البناية قد اخرجت محتوياتها واعدت للهدم ومع ذلك استولى اللصوص على ما بقي فيها من المغاسل والمجالي

وأكثر زجـاج الأبواب والشبابيك بالاضافـة الى أولاد المدارس المجاورة الذين رشقوهـا ـ ولا أحد يعلم لمـاذا ـ بالحجارة فلم يتركوا فيها زجاجا على زجاج • وكانوا قـد خربوا ايضا حديقتها وكسروا بلاط بركتها الرخامية الرائعة• وبالفعل كان التخريب المحدث فيها مثيرا للغيظ وبطبيعـة الحال راح سليم يتساءل : لم لم يكن هناك حارس قبـل الان ؟ واجابه الوكيل الذي كان بالرغم من تعاطيه التجارة من المتدينين وهو يركز طربوشه على رأسه مجتازا اجمة من ازهار الليلك : «انه حاصل البخل فصاحبة البناية ـ وعندها غيرها ـ لكي توفر بضع ليرات تعطيها لحارس تركتهـا فخربها اللصوص والاولاد ولولا خوفها من ذهاب البقيـة لما طلبت الي بان استأجر حارسا » •

فقال سليم :

ـ لا بأس • اين تريدني ان امكث ؟

فقال الوكيل :

ـ من الافضل ان تبقى قريبا من المدخل • ارى ان تمكث على شرفة الطبقة الاولى •

ونقل الرجلان الامتعة الى شرفة الطبقة الاولى • كانـت ارض الدرج والغرف والشرفة ملأى بالغبار والحجـارة والزجاج وساعده الوكيل على تنظيف ارض الشرفة وأعطاه على الحساب خمس ليرات ثم سلمه المفتاح وانصرف .

وضع سليم سريره بزاوية الشرفة الى جانب الواجهة التي تتألف من قبـاب مرفوعة على اعمدة مـن الرخام يتخللهـا

الزجاج والخشب الدقيق على الطراز العربي ..

وكانت الشرفة بالرغم من التخريب المزعج ما تزال تحتفظ بطرازها القديم وسعتها المطلة من فوق مرتفع طبيعي على البحر . كانت شرفة واسعة من الطراز القديم حيث الناس اكثر لصقا بالطبيعة وكان سقفها يرتفع عاليا ويرتكز على عمودين رخاميين عاليين تاركين للنظر ان ينبسط مع الفضاء والبحر .

جلس سليم على طرف سريره برهة يتأمل المشهد . كان كانسان شاعر يعتقد ان ثمن تلك النظرة الرائعة يكفي اجرا لحراسة هذه البناية مدى الحياة . كان هذا الشعور السامي يعزيه بالاجر الضئيل الذي سيناله . وعلى كل ، كان يائسا من العثور على عمل وكان يريد ان يهرب ولو لفترة قصيرة من بيتهم الصاخب الذي يضطر أن يعيش ويكتب فيه . وبلحظة تذكر ان كل ما اعطاه من قصص قاتمة ومسرحيات حزينة كان مبعثها الجو الصاخب الذي عاش فيه. لكنه لم يقتنع . وكاد يدخل في نقاش مع نفسه حول كتاباته لو لم ير أن الوقت غير مناسب . وكان ما يراه من رؤوس السطوح وانتنات التلفزيونات والجدران العالية المنقوشة بالنوافذ .. وكأنها لوحة لفنان وخط ذلك الافق المتعرج الدقيق المتوازي مع صفحة البحر والاسربة من طيور خطاف البحر ... ما يغنيه عن اي بحث .. وبقدر ما كان نظره يمر حرا خلل المشهد كانت اعصابه المتعبة ترتاح رويدا رويدا .

وما لبث ان استشعر براحة تامة اعقبها شعور حاد

بالاستلقاء والنوم وفى اللحظة تذكر انه لم يغلق باب البناية.
فخلع سترته وعلقها فوق سريره ثم اخذ المفتاح ونزل . كان
الباب الخشبي متهالكا فاضطر ان يرفعه حتى تمكن من
تحريكه بحيث تدخل السكارة فى القفل . ورأى وهو يعود
بان يلقي نظرة على حدود الحديقة . كان من الضروري
والحديث عن اللصوص ان يعرف اين تقع البناية . وكانت
الحديقة مشعثة محطمة الاشجار وكان القسم الشمالي على
مرتفع قليل ظللته شجيرات الشربين التي تساقطت اوراقها
وتراكمت سماكة فراش . ومرت من بين قدميه شموسات
هرمة وافعى بلون الحشائش كحبل . ومع ذلك كان يشعر
بانسجام كلي مع المكان حتى وكأنه عاش فيه منذ زمن .
ووقف ، من غير انتباه ، الى الباب الاخر للحديقة يطل على
درب خال مسدود وألقى نظرة على الدرج المنخفض المؤدي اليه
ثم راح يتأمل ذلك المنخفض المهجور من الحديقة . وفى
اللحظة سمع شهيقا وبكاء فالتفت فاذا باسفل الجدار الذي
يسد الدرب وينتهي باحد بيوت الخدم طفلة مشردة شقراء
زرقاء العينين تبكي تتحدث الى نفسها تحرك يديها بالم .
وكانت الطفلة بوحدتها ببكائها بجلوسها فى ذلك المكـان
امرا غريبا . لم يكن سليم قد رأى مشهدا مماثلا . وما كان
باعتقـــاده ان لطفلة فقيرة لا تتراوح السابعة هـــذا العالم
الوحداني الذي يمكن ان تفضله على عوالم المدينة تلجأ
اليه تبثه شجونها . كان مسرورا بها سرور خالقها . كانت
ناحلة تجلس على حافة حجرية عند اسفل الجدار بظـل
السكون والوحدة كانـــت تبكي بمرارة تبكي وتشهـــق

وتختنق .. يا الله . ما اعظم ما تشكو هذه الطفلة ؟ ولكن هل لطفلة مثلها احساس بهذه الحدة ؟ وبطريقة ما ، وجد دموعه تنهمر ، واذا بشعور طاغ من الوحدة يلفه ، ذلك الشعور الذي بدا وكأنه يلف قلب الطفلة وكل القلوب الصغيرة الحساسة فى العالم ... وجمد فى مكانه خشية ان يحدث حركة تنبه اليه الصغيرة تقطع مجرى بكائها الرائع الملوكي . كان يحب ان تبكي ، لو تظل تبكي حتى آخر دمعة . كانت هناك بوحدتها وصمتها وبكائها ضمير هذا العالم المتألم الساعي عبثا الى التوحد . واخيرا تنبهت الطفلة اليه . لم تخف . لم يرعبها منظره المفاجيء وهو امامها بكل طوله الشامخ . وكف عن البكاء واعتراه الخجل لكن ذلك كان موقتاً والدموع التي كانت تنحدر من عينيها غـدت متلئلئة وكأنها دموع فى عين انسان آخر .

وحتى لا يعكر صفو لحظة لقائه بها انصرف سريعا . وقبل ان يصعد الى الشرفة القى نظرة خاطفة على حدود البناية فاذا هناك ملاعب ومدارس وبيوت واكواخ وكل انسان مثله يروح ويجيء فى عالمه الخاص متواحداً صامتا غريبـا .

البحار المفتوحة

جرت حادثة القصة في حمى انتفاضة شعبنا من اجل الاستقلال . يومها ـ يقول الراوي ـ اعطتنا جماهير الشارع قائدا عظيما لا يذكره اليوم أحد، وقد استشهد كما يستشهد الأبطال الحقيقيون في صمت .. بدون صـراخ ولا ضجيج ولا متفرجين ..

المارة النادرون ، الشمس ، الارض ، الهواء ، كل شيء ، كان يتقلص يهرب من الحر فى ذلك المساء من تشرين .

خلال ذلك كنت اترك الطريق للترام وأقف اتفحص جواز السفر بين يدي : عبد الله فى ... لا الاسم ولا التاريـخ

ولا أي شيء بقي لــه معنى • كنت وكأني فى مكان معزول بجزيرة مهجورة • وحده الاسم كان يعصب عيني ، دون سبب ، بالاف عقود الماس التي تأبى ان تنفرط ••

وحتى لا اتأخر اعدت جواز السفر الى جيبي وواصلت الركض • لم يكن أي شيء ليحول دون وصولي الى البحر • عن يميني كانت الاكواخ بمخلوقاتها المرميات ، يتقدمها بيت ميشال يصعد من الرصيف مباشرة بدرجه المتاكل • وكدت ان اصعد لاخبر ميشال بنجاح الخطة ولكن البيت كان فى ذهني مثل بيتنا جدارا ساحقا من الصمت •• فلم اتوقف ••

وعند ناصية ذلك الحي رأيت شبحا يخرج من زقــاق شرقي • كانت امرأة بغي فلا بطن لها ولا صدر ولا ملامح • هزيلة كلا شيء • وجهها مزيج من العرق والرخام •

وبنظرة اخرى لاحظت انها تسير ببطء ، الساق تتخلف عن الساق تقوم وتقع • واخيرا سقطت كتلة هامدة قبل ان تلامس اصابعها الجدار • لم اقف • مئات من شعبنا يموتون فى هذه اللحظة تحت التعذيب فى زنزانات الفرنسيين • الا انني لم امنع نفسي من ان اصرخ : «ماتت» ولم افكر • واصلت طريقي كالة مدفوعة بخط واحد واتجاه واحد ، كسيف مسلول يقطع بحد لا يرحم كل ما يحد انطلاقته الى البحر •

ومن خلال الضوء الذابل الذي ترتعش به نوافذ البيوت

الحقيرة على جانبي الطريق ، كانت مخيلتي تلتمع بابتسامة عبد الله الشجاعة التي طالما شعت خلل كلماته النادرة .

والشارع طويل طويل بلا نهاية ولم اعد اسمع غير وقع حذائي على الاسفلت وهمسات المساء ..

ويسودونك يا ليل ..

ويجرجرونك يا ليل ..

هلم لنرى من يموت هذا الفجر ..

الجو هادىء . البواخر تزدحم فى الميناء . على الرصيف صناديق واكياس واعمدة ومسافرون . ابتعدت مع الشاطىء متوغلا فى احياء العرب والارمن . مراكب الصيادين ترافق الشاطىء فى تعاريجه : الصيادون ناموا ولم يغط اجسامهم غير نسيج شفاف من الضوء الرمادي . الجو صاف . الهواء مالح . الكل يندفع من قلب المياه مالحا مثقلا برائحة البحار البعيدة . على صخرة عالية مركب قديم مغطى بالشباك يحجبه عن الميناء عزال . هنا يجب ان اقف وانظر الى الشرق . كنت اطل على الشاطىء من فوق المرتفع . لم يكن من حولي الا اكواخ الصيادين ثم لا شيء غير الافق حيث تندفع جبال من الضباب الداكن وينطلق البحر بوحشية تلتمع فوق صفحته امواج فضية تزيده غموضا .

عذبتني الغيرة من البحر • قليل من قوته وبطشه يمكن ان تنقذ بلدا من قبضة المستعمرين • وفجاة من مكان ما حيث وقفت رايت بحارين يصعدان المرتفع الذي افترشته الاكواخ والشباك والمراكب • كان احدهما شابا باذخ الجبين صارم الملامح والثاني كهلا ناحلا تلتمع بشرته البرونزية على ضوء المصباح الذي يحمله •

وكان البحر يمتد خلفهما غريبا مثلهما • وفى الافق كانت موجة من الضباب تواكب الشمس التي تغيب وكان الضوء الرمادي يشع بقوة على الميناء • وعلى الرصيف بدت صناديق وجذوع حور واكياس تنزلق على حديد الرافعة يرافق ارتفاعها صرير حاد •

وكانت المراكب الشراعية تشق طريقها الى عرض البحر مخلفة وراءها تموجات صغيرة تذوب شيئا فشيئا كلما ابتعدت • كانت عينا البحارين تحدقان الي تارة والى شبكة الصيد التي يجرانها تارة اخرى •

وانطلقت صفارة الباخرة وشرع البحارة يسحبون الحبال من البحر ••

ركضت نحوهما وقد عرفت فى احدهما واحدا من قادة المظاهرة الاخيرة • ولا شك انه عرفني او انهم ابلغوه عن وصولي فقال متجاهلا :

ـ اخليل انت ؟

ـ وهل تغيرت كثيرا ؟

فقال :

ـ تغيرت قليلا • نعم قليلا • والان قل لي كيف حالك؟
قلت وانا لا ازال الهث :

ـ لم يبق إلا دقائق وتقلع الباخرة .

واخرجت جواز السفر ••

ـ هذا مستحيل •

فقلت :

ـ اصدقاؤك بذلوا جهدا خارقا حتى استحصلوا لـك على هذا الجواز • ولم يحرك عبد الله نظره عن الشيخ ولم ينطـق • ونظرت الى الشيح فالفيته يبتعـد • لم اره مـن قبل • ولم اعرف كيف اجعله يساعدني فى اقناع عبد الله بالسفر • وتابعت قائلا :

ـ انك ترتكب خطأ كبيرا •

ـ لا استطيع ••

ــ بل تستطيع وما عليك الا آن تعجل بالدخول الى الميناء •

ولم يجب ••

فاردفت وقد تحول قلقي الى شعور ثابت :

ــلعلهم اخطاؤا بارسالي اليك •• يبدو وكأني غير جدير باقناعك • لكن ارجوك ان تفهمني فقد شددوا علي باقناعك •• ارجوك •• اواه •• لماذا ؟ لماذا ؟..
وبقي عبد الله صامتا .

واردفت :

ــ ارجوك ، مرة اخرى ، ان تأخذ الجواز • حياتك فى خطر ••

ونطق اخيرا :

ــ ليس لي عمل فى الخارج • عملي هنا وسأبقى هنا • اما اصدقائي فارجو ان تحمل اليهم شكري على احضار الجواز ••

وحدق فى عيني وكأنه يريد ان يكشف لي اكثر فاكثر

ان لا جدوى من أي شيء لكنني بقيت جامدا ولم تثر نظرته لدي غير جزء من الرجل الذي يجب ان يحافظ على حياتــه

قلت بانفعال :

ــ يجب ان تنقذ نفسك •

ــ لا •• فلم يبق جدوى من ذلك •

قلــت :

ــ من اجلنا •• من اجلنا فقط ••

ــ لم يبق جدوى من ذلك •

قلت :

ــ اذن سأمضي ••

ورد فى لا مبالاة :

ــ الى اللقاء وشكرا على مجيئك ••

نظرت الى البحر • كانت الباخرة ترفع قلاعها وكانت الايدي من فوقها وعلى الرصيف قد بدأت تلوح بالمناديل • فاطرقت لحظة ثم مضيت • ولما وصلت الى طرف المرتفع سمعت البحار الشيخ ينادي بصوت عال :

ــ لحظة ايها الصديق ••

وانتظرته وقـــد خفق قلبي بقوة . فأردف وهـــو يقترب نحوي :

ــ انك تسلك الطريق الاطول ••

وسرنا معاً صامتين في درب ضيق يصعد بين الصخور حتى قال اخيراً :

ــ لم أتدخل لأني اعرف ان ليس لأحد ان يثنيه عن الأمر .

ــ امر مثير .

ــ حقا انه امر مثير •

ــ هل اخبرته ان بقاءه سيكون خطرا •

ــ انه يعرف ذلك •

ــ وماذا هو فاعل ؟

ــ •• سيبقى •

ــ لكنه محكوم بالموت •••

ــ اعتقد انه اخطأ ..

ــ امر مدهش : رجل محكوم بالموت ويرفض ان يهرب ••

ــ حقا انه امر مدهش ••

وكنا قد وصلنا الى الطريق العام فشد الشيخ على يدي ثم شدها بقوة وهزها ومضى .

لعبة الاعلانات المبوبة

صباح كل يوم كان يقرأ طلبات العمل فى الجرائـــد . كان ذلك لا يكلفه اكثر من نصف ليرة يطلب من بائع الجرائد في ساحة الدباس ان يعيره الجرائد التي تضم باب العمــل فيدفع له ربع ليرة ويدفع لصاحب المطعم المجاور التي يقرأها عنده ربعا آخر .. وهكذا سارت الامور وان كانت بـــلا نتيجة . والمشكلة التي يعانيها ان الاختصاص الذي يملكـــه غير مطلوب في هذا البلد وفي الاعمال غـــير ذات اختصاص كان المعلنون يتجنبونه حين يعرفون انه من صنف معين مـــن البشر او انهم يعلنون عن حاجتهم لعمال او موظفين بغيـــة الدعاية لانفسهم ومؤسساتهم او لجنون لم يكتشف الطب له سببا .

وفي صباح ذلك الاثنين بدأت معاملة صاحب المطعم له تتبدل . فقد اخذ ينقله من طاولة الى طاولة بعذر او بآخر ثم راح يكنس متعمدا ان يثير من حوله الازعاج والغبار . وفهم سليم . وكان قد قرأ طلبات العمل في عدة جرائد فاكتفى بواحد منها وغادر المطعم .

وهو يغادر المطعم اعتزم على الا يراجع طلبات العمل بعد اليوم ـ وكاد في آخر لحظة ان يرمي بقصاصة الورق التي عليها عنوان المؤسسة العلمية التي ذكرت انها بحاجة الى موظفين لو لم يكن بحاجة قاهرة للعمل . فصعد هناك الى مكتب محام صديق وتلفن للمؤسسة . وكان مدير المؤسسة بنفسه على الخط فاعطاه الشروط وعين موعدا لمقابلته .

ومدير تلك المؤسسة رجل بدين تجاوز الاربعين كبير الفكين سمرته تميل الى السواد واسمه محمد . وقابله سليم في الصباح التالي حسب الموعد . وعرف انه مدير لعدة مؤسسات علمية كما ومدير لمعهد علمي. وبكل بساطة اجتمع بمحمد ونفذ اوامره . فحضر في اليوم التالي واشترك مع خمسة او ستة اشخاص في امتحان القبول . وخلال دقيقتين انهى امتحانه . فطلب اليه محمد ان يعود بعد ساعة . وبعد ساعة طلب اليه ان يقابله في السابعة مساء وفي المساء اخبره ان المؤسسة وافقت على توظيفه وعرض عليه شروط العمل . فوافق وعندها عين موعدا في صباح الاثنين لمقابلته وتسليمه العمل . وحضر سليم في الوقت المعين . ففوجىء بعشرات الاشخاص يأتون معه . وانتظر هو والمرشحون الاخرون

ساعة ولكن محمد لم يحضر وفي اخر لحظة تلفن الى سكرتير المؤسسة بانه لن يأتي وعلى المرشحين ان يحضروا الساعة الرابعة لمقابلته . وحضر سليم والمرشحون الاخرون في الموعد وكان املهم باستلام العمل يزداد حتى غدوا رهن اشارة من المدير ولكن المدير لم يكن قد وصل . وانتظروه كما فى الصباح ساعة اخرى . ثم تلفن المدير للسكرتير « ان لا يقول للمرشحين شيئا غير انه لن يأتي » . ماذا عن مصير الوقت المهدور الذي اضاعوه فى الامتحان والانتظار ؟ وهكذا بعد عشرة ايام من الرواح والمجيء بدا واضحا ان المدير يتهرب من تشغيل المرشحين . لماذا ؟ سأل واحد من المرشحين. فقال له سليم :انه الجنون الذي لم يكتشف الطبيب له سببا. لكن سليم عاد بعد برهة ليفكر ببساطة : لماذا لم يقل منذ المقابلة الاولى بانه لا يحتاج الينا ؟ وسكت ...

وانسحب المرشحون اخيرا وبقي سليم . « هل صار الانسان ممسحة بيد رجل كمحمد » ؟ وبطبعه صمم على الا يسكت . اتصل من المؤسسة بمنزل المدير . فقيل له غير موجود . « غير موجود يجوز » قال لنفسه ، ولكن لماذا نشر الاعلان فى الجريدة ؟ لماذا لم يتصل بالمرشحين ويصرفهم بالتي هي احسن ؟ هل من مزيد لشهوة التلذذ بتعذيب الناس ؟ لم يستطع ان ينام . اتصل مرة اخرى بالمدير . فكان الجواب هو نفسه. وفى اليوم التالي تلفن للمدير من المؤسسة فقيل له غير موجود . وليس لانه لم يصدق ذهب الى المؤسسة بل لكي ينتهي من امر مزعج .

دخل وسأل عن المدير وكان السكرتير الان شخصا اخر طويلا حاد القامة شديد الاسمرار . قال له انه موجود . وسأل السكرتير ان يقابله ولكن السكرتير استنظره نحوا من ربع ساعة وبدا كأن امرا بازعاجه قد صدر . فتقدم سليم من السكرتير وقال : يجب ان اقابل المدير . فقال السكرتير . أي نعم . ولكنه مشغول . فقال سليم : مشغول ؟ فقال السكرتير . « يتكلم على التلفون » . « منذ ساعة يتكلم على التلفون ؟!» . وبعد ربع ساعة ساله : يجب أن أدخل فقال أي نعم . ودخل سليم المكتب وكان محمد ممددا بجثته الضخمة فوق الكرسي يدخن ويقرأ في جريدته فسلم عليه : يعطيك العافية . واجاب محمد بازدراء دون ان يحرك عن كرسيه : اهلا . هل انت الذي تلفنت ؟ فقال سليم : نعم. اردت ان اسأل عن مصير العمل او بالاحرى عن مصير الموعد الذي تخلفت عن حضوره فقال محمد وهو ينتفض ويعتدل خلف مكتبه : « وماذا يهمك انت حضرنا أو لم نحضر ؟ » وعندئذ قال سليم مستئذنا : ... ارجوك . الناس تكفيهم مشاكلهم ، ومن حقي ان اسأل عن مصير عشرة ايام قضيتها بالوقوف والانتظار والامتحان وعمل الطلبات . فقال محمد وعيناه تومضان بعداء غريزي : انا حر . اذهب واشتكي علي . فقال سليم : ليس من هدفي ، إنما أريد ان اقول بأن عملكم .. ليس لائقا .فصرخ به محمد وهل جئت تحاكمني؟ .. هيا اخرج : وقفز من خلف مكتبه وامسك بكتفي سليم وراح يجره من المكتب مشهرا بوجهه بين لحظة واخرى قبضة سخيفة ..

لم يكن سليم من الناس الذين يرفعون يدهم على احد. اليس ذلك ظاهرا انه بالرغم من اختصاصه العالي يعيش في البطالـة ؟

ان الذي سيطر عليه ان افرادا في مستوى الكائن البرمائي سنجعل لهم قيمة عندما لا نرفع يدنا بوجههم • وهكذا لم يقاوم سليم • ولم يقاوم اليد التي امسكت بكتفه تشده بكل غرور • انما لم يخف • ولم يخرج الا لانه يجب ان يتفادى العنف •

وخروج سليم بسهولة جعل بظن محمد انه خاف منـه • (ويا ارض هدي محمد) وامسك محمد بالكرسي ورفعهـا عليه يريد ان يحطم رأسه • ونظرة صريحة من سليم جمدت محمد الذي كان يبدو كالكلب الهائج بين يدي السكرتير.

ولما خرج سليم من المؤسسة كان غـير واع لنفسه وكانت تمر في اللحظـة سيارة شحـن بعرض الطريـق فاجتاحته وصرعته للتو •

وحول الجثة ، تجمهر بين الذين تجمهروا ، موظفو المؤسسة وبائع الجرائد وصاحب المطعم •

قال بائع الجرائد : منذ اسبوعين لم يستعر مني جريدة •

وقال صاحب المطعم : منذ اسبوعين لم يقرأ عندي جريدة

وقال احد الموظفين الذين امسكوا بالكرسي التي كان محمد قد رفعها على سليم :

ـ اعتقدنا اننا منعنا وقوع جريمة !

وكان محمد ينظر الى المشهد من شرفة مكتبه دون ان يجرؤ على النزول الى الشارع ينظر بعينين فيهما رمـاد الموت الذي في عيني البقر •

الفهرس